الفصل الثالث :

أنواع التناص

للتناص أنواع منها :

١- النقائض:

جمع نقيضة ، وهي القصائد التي تجمع في أبياتها بين الفخر والهجاء ، وقد حملت لنا كتب التراث ومصادره كثيرا من النقائض للفرزدق وجرير ومن هذه النقائض :

يقول الفرزدق :

إنّ الـذي سَـمَكَ السّـماءَ بَـنى لَنَـا
بَيْتـاً، دَعَائِمُـهُ أعَـزُّ وَأطْـوَلُ

بَيْتـاً بَنَـاهُ لَنَـا المَلِيـكُ، ومَـا بَـنى
حَكَـمُ السّـمَاءِ، فإنّـهُ لا يُنْقَـلُ

بَيْتـاً زُرَارَةُ مُحْتَـبٍ بِفِنَائِـهِ،
وَمُجاشِـعٌ وَأبُـو الفَـوَارِسِ نَهْشَـلُ

يَلِجُونَ بَيـتَ مُجاشِـعٍ، وَإذا احتبـوْا
بـزُوا كَـأنّهُمُ الجِبَـالُ المُثّـلُ

لا يَحْـتَبي بِفِنَـاءِ بَيْتِـكَ مِـثْلُهُمْ
أبـداً، إذا عُـدّ الفَعَـالُ الأفْضَـلُ

ضَرَبتْ عَلَيـكَ العنكَبـوتُ بِنَسْـجِها،
وَقَضَـى عَلَيـكَ بـهِ الكِتـابُ المُنْـزلُ

أيــنَ الّــذِينَ بِهِــمْ تُسَــامي دارمــاً،

أمْ مَــنّ إلى سَــلَفَيْ طُهَيّــةَ تَجعَــلُ

يَمْشُونَ في حَلَقِ الحَديدِ كمــا مَشَــتْ

جُرْبُ الجِمــالِ بِهــا الكُحَيــلُ المُشــعَلُ

وَالمــانِعُونَ، إذا النّســاءُ تَرَادَفَــتْ،

حَــذَرَ السِّــبَاءِ جِمَالُهَــا لا تُرْحَــلُ

يَحمي، إذا اختُرِطَ السّيوفُ، نِســاءنا

ضَــرْبٌ تَخِــرّ لَــهُ السّــوَاعِدُ أرْعَــلُ

******

وإذا بَــذَخْتُ وَرَايَــتي يَمْشِــي بِهَــا

سُــفيانُ أو عُــدُسُ الفَعــالِ وَجَنــدَلُ

الأكْثَــرُونَ إذا يُعَــدّ حَصَــاهُمُ،

والأكْرَمُــونَ إذا يُعَــدّ الأوّلُ

وَزَحَلْتَ عَن عَتَبِ الطّرِيــقِ، وَلم تجِــدْ

قَــدَماكَ حَيــثُ تَقُــومُ، سُــدَّ المَنقَــلُ

إنّ الزّحَــامَ لغَيرِكُــمْ، فَتَحَيّنُــوا

وِرْدَ العَشِــيّ، إلَيْــهِ يَخْلُــو المَنــهَلُ

حُلَـــلُ المُلُـــوكِ لِبَاسُـــنَا في أهْلِنَـــا،
وَالسّـــابِغَاتِ إلى الـــوَغَى نَتَسَـــرْبَلُ
أحْلامُنَـــا تَـــزِنُ الجِبَـــالَ رَزَانَـــةً،
وَتَخَالُنَـــا جِنّـــاً، إذا مَـــا نَجْهَـــلُ
فـــادْفَعْ بكَفّـــكَ، إنْ أرَدْتَ بِنَاءنـــا،
ثَهْـــلانَ ذا الهَضَـــباتِ هـــل يَتَحَلحَـــلُ
وأنَـــا ابـــنُ حَنظَلَـــةَ الأغَـــرُّ، وَإنّـــي
في آلِ ضَـــبّةَ، لِلْمُعَـــمُّ المُخْـــوَلُ
فَرْعـــانِ قَـــدْ بَلَـــغَ السّـــماءَ ذُراهُمـــا؛
وَإلَيهِمـــا مِـــنْ كُـــلّ خَـــوْفٍ يُعْقَـــلُ

ويقول :

فَلَـئِنْ فَخَـرْتُ بِهِـمْ لِمِثْـلِ قَـدِيمِهِم
أعْلُـــوا الحُـــزُونَ بِـــهِ وَلا أتَسَـــهّلُ
زَيْـــدُ الفَـــوارِسِ وَابـــنُ زَيْـــدٍ منـــهُمُ،
وأبُـــو قَبِيصَـــةَ وَالـــرّئيسُ الأوّلُ
أوْصَى عَشِـيّةَ حِـينَ فَـارَقَ رَهْطَـه،
عنـــدَ الشّـــهادَةِ وَالصّـــحيفَةِ، دَغفَـــلُ

إنّ ابــنَ ضَــبّةَ كــانَ خَــيرا وَالِــداً،

وَأَتَــمُّ في حَسَــبِ الكهــرَامِ وأفضَــلُ

مِمّــنْ يَكُــونُ بَنُــو كُلَيْــبٍ رَهْطَــهُ،

أوْ مَــنْ يَكُــونُ إلَــيْهِمُ يَتَحَــوّلُ

وَهُــمُ الــذِينَ عَلَــوْا عَمَــارَةَ ضَــرْبَةً

فَوْهَــاءَ، فَــوْقَ شُــؤونِهِ لا تُوصَــلُ

وَهُــمُ، إذا اقتَسَــمَ الأكــابِرُ، رَدَّهُــمْ

وَافٍ لضَــبّةَ، وَالرّكَــابُ تُشَــلْشَلُ

جَــارٌ، إذا غَــدَرَ اللّئَــامُ، وَفَــى بِــهِ

حَسَــبٌ، وَدَعْــوَةُ مَاجِــدٍ لا يُخــذَلُ

وَعَشِــيّةَ الجَمَــلِ المُحَلّــلِ ضَــارَبُوا

ضَــرْباً شُــؤونُ فَرَاشِــهِ تَتَزَيّــلُ

*****

يــا ابــن المَرَاغَــةِ! أيْــنَ خَالُــكَ؟

إنّني خالي حُبَيشٌ ذو الفَعــالِ الأفضَــلُ

خالي الذي غَصَبَ المُلُــوكَ نُفُوسَــهمْ،

وإلَيْــهِ كَــانَ جِبَــاءُ جَفْنَــةَ يُنْقَــلُ

إنّـــا لَنَضـــرِبُ رَأسَ كُـــلّ قَبيلَـــةٍ،
وأَبُـــوكَ خَلْـــفَ أَتانِـــهِ يَتَقَمّـــلُ

وَشُغِلتَ عن حَسبِ الكِرَامِ وَما بَنَـوا؛
إنّ اللّئـــيمِ عَـــنِ المَكَـــارِمِ يُشْـــغَلُ

إنّ الّـــتي فُقِئَـــتْ بِهَـــا أبْصَـــارُكُمْ،
وَهـــي الـــتي دَمَغَـــتْ أبـــاكَ، الفَيصَـــلُ

وَهَبَ القَصَائدَ لي النّوابـغُ، إذْ مَضَـوْا،
وَأَبُـــو يَزِيـــدَ وَذو القُـــرُوحِ وَجَـــرْوَلُ

وَالفَحْـــلُ عَلقَمَـــةُ الـــذي كانَـــتْ لَـــهُ
حُلَـــلُ المُلُـــوكِ كَلامُـــهُ لا يُنحَـــلُ

وَأَخـــو بَـــني قَـــيْسٍ، وَهُـــنّ قَتَلْنَـــهُ،
وَمُهَلْهِـــلُ الشّـــعَرَاءِ ذاكَ الأوّلُ

وَالأعْشَـــيانِ، كِلاهُمَـــا، وَمُـــرَقّشٌ،
وَأَخُـــو قُضَـــاعَةَ قَوْلُـــهُ يُتَمَثّـــلُ

وَأَخُـــو بَـــني أَسَـــدٍ عَبِيـــدٌ، إذْ مَضَـــى،
وَأَبُـــو دُؤَادٍ قَوْلُـــهُ يُتَنَحّـــلُ

وَابْنَـــا أبي سُـــلْمَى زُهَيْـــرٌ وَابْنُـــهُ،
وَابـــنُ الفُرَيعَـــةِ حِـــينَ جَـــدّ المِقْـــوَلُ

وَالجَعْفَـرِيُّ، وَكَـانَ بِشْـرٌ قَبْلَـهُ،

لِي مِـن قَصـائِدِهِ الكِتـابُ المُجمَـلُ

وَلَقَـدْ وَرِثْـتُ لآلِ أوْسٍ مَنْطِقـاً،

كَالسَّـمِّ خـالَطَ جانِبَيْـهِ الحَنْظَـلُ

وَالحـارِثِيُّ، أخُـو الحِمَـاسِ، وَرِثْتُـهُ

صَدْعاً، كما صَـدَعَ الصَّـفاةَ المِعْـوَلُ

دَفَعُـوا إليّ كِتـابَهُنّ وَصِـيَّةً،

فَـوَرِثْتُهُنّ كَـأنّهُنّ الجَنْـدَلُ

ويقول :

إنّ اسـتِراقَكَ يـا جَرِيـرُ قَصَـائِدِي،

مِثْـلُ ادِّعَـاءِ سِـوَى أبِيـكَ تَنَقُّـلُ

وابـنُ المَرَاغَـةِ يَـدَّعي مِـنْ دارِمٍ،

وَالعَبْـدُ غَـيرَ أبِيـه قَـدْ يَتَنَحّـلُ

لَـيْسَ الكِـرامُ بناحِلِيـكَ أبَـاهُمُ،

حـتى تُـرَدّ إلى عَطِيّـةَ تُعْتَـلُ

وَزَعَمْتَ أنّكَ قَـدْ رَضِـيتَ بِمـا بَـنى،

فَاصْبِرْ فما لكَ، عَـن أبِيـكَ، مُحَـوَّلُ

وَلَئِنْ رَغِبتَ سوى أبيكَ لَتَرْجِعَنْ
عَبْداً إلَيْهِ، كَأنّ أنْفَكَ دُمَّلُ
أزْرَى بِجَرْيِكَ أنّ أُمّكَ لَمْ تَكُنْ
إلاّ اللَّئِيمَ مِنَ الفُحُولَةِ تُفحَلُ
قَبَحَ الإلَهُ مَقَرّةً في بَطْنِهَا،
مِنْهَا خَرَجْتَ وَكُنتَ فيها تُحمَلُ
وإذا بَكَيْتَ على أُمَامَةَ، فاستَمِعْ
قَوْلاً يَعُمّ، وَتَارَةً يُتَنَحّلُ

ويقول :

أسألْتَني عَنْ حُبْوَتِي ما بَالُها،
فاسألْ إلى خَبَرِي وَعَمّا تَسْألُ
فاللّومُ يَمْنَعُ مِنْكُمُ أنْ تَحْتَبُوا؛
والعِزُّ يَمْتَعُ حُبْوَتِي لا تُحْلَلُ
والله أنْبَتَهَا، وَعِزٌّ لَمْ يَزَلْ
مُقْعَنْسِساً، وَأبِيكَ، ما يَتَحَوّلُ
جَبَلي أعَزُّ، إذا الحُرُوبُ تكَشّفَتْ،
مِمّا بَنى لَكَ وَالِدَاكَ وَأفْضَلُ

هَـلاّ سَـأَلْتَ بَـني غُدانَـةَ مـا رَأَوْا،

حَيْـثُ الأَتَـانُ إلى عُمُـودِكَ تُرْحَـلُ

كَسَـرَتْ ثَنِيَّتَـكَ الأَتَـانُ، فَشَـاهِدٌ

مِنْهـا بِفِيـكَ مُبَـيَّنٌ مُسـتَقْبَل

ويقول جرير متناصا مع نقيضة الفرزدق :

أعـددت للشـعراء سمـاً ناقعـاً

فسـقيت آخـرهم بكـأس الأول

لما وضـعت علـى الفـرزدق ميسـمي

وضغا البعيث جدعت أنـف الأخطـل

أخزى الـذي سمـك السـماء مجاشـعا

وبـنى بنـاءك في الحضـيض الأسـفل

ولقـد بنيـت أخـس بيـت يـتنى

فهـدمت بيـتكم بمثلـي يـذبل

إني بـنى لي في المكـارم أولي

ونفخـت كـيرك في الزمـان الأول

إني انصـببت مـن السـماء علـيكم

حتى اختطفتك يـا فـرزدق مـن عـلَ

أحلامنـــا تـــزن الجبـــال رزانـــة

ويفـــوق جاهلنـــا فعـــال الجهـــل

فـــارجع إلى حكمـــي قـــريش إنهـــم

أهـــل النبـــوة والكتـــاب المـــنزل

كـــان الفـــرزدق إذ يعـــوذ بخالـــه

مثـــل الـــذليل يعـــوذ تحـــت القرمـــل

إن الـــذي سمـــك الســـماء بـــنى لنـــا

عـــزا عـــلاك فمـــا لـــه مـــن منقـــل

أبلـــغ بـــني وقبـــان أن حلـــومهم

خفـــت فـــلا يزنـــون حبـــة خـــردل

إلهـــى أبـــاك عـــن المكـــارم والعـــلا

لي الكتـــائف وارتفـــاع المرجـــل

واضح من النصين اشتمال كل منهما على الفخر والهجاء :

فهذا الفرزدق يبدأ قصيدته مشيدا بأجداده وأنهم قد شيدوا بيتا قوي الدعائم يستمد قوته من الخالق الأعظم الذي خلق السماء ثم يذكر مفتخرا أسماء أجداده ، ويسمي منهم : زرارة ، ومجاشع ، ونهشل ، ويعير جريرا أن ليس له مثل هؤلاء الأجداد العظماء ، وأن بيته واه قد نسجت عليه العنكبوت خيوطها لضعفه وهزاله ، ويبين أنه يدعى غير

أبيه ، لذلك لم يجد بأسا في سرقة شعر الفرزدق وادعائه نسبتها إليه ، كما لم ينس الافتخار ببني قبيلته المحاربين وما يتصفون به من شجاعة وبأس عند قتال العدو .

أما جرير فإنه يبدأ قصيدته بنقض ماقال الفرزدق ، وأن عليه أن يخزى لأن البيت الذي شيده أجداده في منزلة متدنية ، بل هو في الحضيض الأسفل ، وأن جريرا انصب عليهم من السماء كصاعقة ، فاختطف الفرزدق من بينهم ، ثم يشيد بعقول قومه ، وأنها ثابتة راسخة رسوخ الجبال ، وأن حلوم قوم الفرزدق خفيفة لا تساوي حبة خردل .

ويتضح التناص عند الشاعرين فيما يلي ،

- الفكرة في النصين واحدة تقوم على الفخر الممزوج بالهجاء .
- اختلاط الفخر بالهجاء ، حتى لا تكاد تفصل أحدهما عن الآخر
- ويبدو التناص واضحا ملموسا في أخذ عبارات ، وأبياتا بعينها

مثل :قول الفرزدق :

إنّ الـذي سَـمَكَ السّـماءَ بَـنى لَنَـا

بَيْتـاً، دَعَائِمُـهُ أعَـزُّ وَأطْـوَلُ

بَيْتـاً بَنَـاهُ لَنَـا المَلِيـكُ، ومَـا بَـنى

حَكَـمُ السّـمَاءِ، فإنّـهُ لا يُنْقَـلُ

ويقول جرير:

أخزى الـذي سمـك السـماء بحاشـعا

وبـنى بنـاءك في الحضـيض الأسـفل

ولقـد بنيـت أخـس بيـت يبـتنى

فهـدمت بيـتكم بمثلـي يـذبل

ويقول الفرزدق :

أحْلامُنَـا تَـزِنُ الجِبَـالَ رَزَانَـةً،

وَتَخَالُنَـا جِنّـاً، إذا مَـا نَجْهَـلُ

فـادْفَعْ بكَفّـكَ، إنْ أرَدْتَ بِنَاءنـا،

ثَهْـلانَ ذا الهَضَـباتِ هـل يَتَحَلحـلُ

ويقول جرير :

أحلامنـا تـزن الجبـال رزانـة

ويفـوق جاهلنـا فعـال الجهـل

فـارجع إلى حكمـي قـريش إنهـم

أهـل النبـوة والكتـاب المـنزل

ويقول الفرزدق :

خالي الذي غَصَبَ المُلُـوكَ نُفُوسَـهمْ،

وإلَيْـهِ كَـانَ حِبَـاءُ جَفْنَـةَ يُنْقَـلُ

إنّـــا لَنَضـــرِبُ رَأسَ كُـــلّ قَبِيلَـــةٍ،

وأَبُـــوكَ خَلْـــفَ أَتَانِـــهِ يَتَقَمّـــلُ

وَشُغِلتَ عن حَسبِ الكِرَامِ وَما بَنَـوا؛

إنّ اللّئِـــيمِ عَـــنِ المَكَـــارِمِ يُشْـــغَلُ

ويقول جرير :

كـــان الفـــرزدق إذ يعـــوذ بخالـــه

مثـل الـذليل يعـوذ تحـت القرمـل

إن الـــذي سمـــك السـماء بـــنى لنـــا

عـــزا عـــلاك فمـــا لـــه مـــن منقـــل

- وقد صاغ الشاعران أبيات قصيدتيهما على نغمات وإيقاع بحر الكامل بما يتمتع به من رحابة واتساع، مبعثه كثرة التفعيلات، كما بدا التناص ملموسا في اختيار حرف الروي اللام المكسورة والمضمومة ، ولو تتبعنا محتوى كل قصيدة على حدة لتبين لنا مقدار ما أخذ الشاعر من أفكار ومعاني الشاعر الآخر .

٢- المعارضات :

وهذا لون آخر من ألوان التناص ، شاع وانتشر في جنبات تراثنا الشعري .

والمعارضة : تعني أن يتناول الشاعر موضوعا تناوله شاعر قديم أو معاصر له في نفس الموضوع ويصوغ أفكاره على أوزان البحر الشعري نفسه .

ولا بد لنا أن نتوقف عند هذا الفن لنرى مابين الشاعرين من تماثل وبواعث القول عند كل منهما وما في النصين من أخذ وتناص مباشر ، لأن الشاعر في هذا اللون من الشعر يعلن صراحة أنه يحاكي شاعرا بعينه ، ويضع يدك في جلاء وظهور على مواضع تأثره بالآخر ، ويزيد على ذلك بإيراد عبارات وصور ، وربما أبيات أخذها ممن يعارض، وليس في ذلك عيب ، لأن المعارضة تقليد ومحاكاة .

ومن اشهر المعارضات :

- سينية شوقي التي عارض فيها البحتري:

يقول البحتري :

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبسي

ويقول شوقي في معارضته :

اختلاف النهار والليل ينسي اذكرا لي الصبا وأيام أنسي

- ومنها نونية شوقي التي عارض فيها نونية بن زيدون :

يقول ابن زيدون :

أضحى التنائي بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ويقول شوقي في معارضته :

يانـائح الطلـح أشـباه عوادينـا نشجى لواديك أم نأسى لوادينـا

ونستطيع أن نتوقف مع المعارضة وقفة نتأمل فيها تقنياتها الفنية وما فيها من تناص.

تأمل معي واحدة من المعارضات المعروفة في تراثنا الشعري ، وهي قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي التي عارض فيها بردة البوصيري.

يقول البوصيري في قصيدة (البردة النبوية) مادحا النبي صلى الله عليه وسلم ، ومشيدا بأخلاقه وسماته ، وتكريم الله له ، وما نال من شرف المنزلة بين الأنبياء والمرسلين :

يقول :

أَمِـنْ تَـذَكُّرِ جِيْـرَانٍ بِـذِي سَـلَمٍ
مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِـن مُّقْلَـةٍ بِـدَمِ؟
أم هبـت الـرِّيْحُ مِـنْ تِلْقَـاءِ كَاظِمَـةٍ
وأومض البرق في الظلماء مـن إضَـمِ؟
فَمَا لِعَيْنِيْـكَ إِنْ قُلْـتَ اكْفُفَـا هَمَتَـا
وما لِقَلْبِـكَ إِنْ قُلْـتَ اسْـتَفِقْ يَهِـمِ؟
أَيَحْسَـبُ الصَّـبُّ أَنَّ الْحُـبَّ مُنْكَـتِمٌ
مَّـا بَـيْنَ مُنْسَـجِمٍ مِّنْـهُ وَمُضْـطَرِمِ؟

لولاَ الْهَوٰى لَمْ تُرِقْ دَمْعًا عَلَـى طَلَـلٍ

ولا أرقـــت لـــذكر الْبَـــانِ وَالْعَلَـــمِ

فَكَيْـفَ تُنْكِـرُ حُبًّـا بَعْـدَمَا شَـهِدَتْ

به عَلَيْـكَ عَـدُولُ الـدَّمْعِ وَالسَّـقَمِ؟

وأثبت الوجـد خطـي عـبرة وضـنى

مثـل البـهار علـى خـديك والعـنم

نعم سرى طيف مـن أهـوى فـأرقني

والحـب يعتـرض اللـذات بـالألم

ويقول :

يَا لاَئِمِي في الهـوى الْعُـذْرِيِّ معـذرة

مِنِّي إِلَيْـكَ وَلَـوْ أَنْصَـفْتَ لَـمْ تَلُـمِ

مَحَضْتَنِي النُّصْحَ لـكِن لَّسْتُ أَسْـمَعُهُ

إن الْمُحِـبَّ عَـنِ الْعُـذَّالِ في صَـمَمِ

ويقول في مدح النبي محمد صلى الله عليه وسلم :

محمـــد سَـــيِّدُ الْكَـــوْنَيْنِ وَالثَّقَلَـــيْن

وَالْفَـرِيْقَيْنِ مِـنْ عَـرَبٍ وَّمِـنْ عجـم

نَبِيُّنَـــا الآمِـــرُ النَّـــاهِي فَـــلاَ أَحَـــدٌ

أَبَـــرَّ في قَـــوْلٍ لاَ منـــه ولا نعـــم

هُوَ الْحَبِيبُ الَّذِي تُرْجَى شفاعته

لِكُلِّ هَوْلٍ مِّنَ الأهْوَالِ مُقْتَحِمِ

دعا إلى اللهِ فَالْمُسْتَمْسِكُونَ بِهِ

مُسْتَمْسِكُونَ بِحَبْلٍ غَيْر منفصمِ

فَاقَ النَّبِيِّيْنَ فِي خَلْقٍ وَّفِي خُلُقٍ

ولم يُدَانُوهُ في عِلْمٍ وَلاَ كَرَمِ

وَكُلُّهُمْ مِّن رَّسُولِ اللهِ ملتمس

غَرْفًا مِّنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِّنَ الدِّيَمِ

وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ عَنْدَ حَدِّهِمِ

مِن نُّقْطَةِ الْعِلْم أو من شكلة الحلم

==========

ويقول شوقي في نهج البردة معارضا البوصيري(٩) :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

رمى القضاء بعيني جؤذر أسدا يا ساكن القاع،أدرك ساكن الأجم

لما رنا حدثتني النفس قائلة يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمي

جحدتها و كتمت السهم في كبدي جرح الأحبة عندي غير ذي ألم

رزقت أسمح ما في الناس من خلق إذا رزقت التماس العذر في الشيم

يا لائمي في هواه، والهوى قدر لوشفك الوجد لم تعذل و لم تلم

لقـد أنلتـك أذنـا غـير واعيـة ورب منتصت والقلب في صـمم

يا ناعس الطرف،لا ذقت الهوى أبـدا أسهرت مضناك في حفظ الهوى فنم

ويقول في القصيدة نفسها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

يـا أفصَـحَ النـاطِقينَ الضـادَ قاطِبَـةً

حديثك الشهد عنـد الـذائق الفهـم

سَـرَت بَشـائِرُ بِالهـادي وَمَولِـدِهِ

في الشرق والغرب مسرى النور في الظلم

أَتيتَ وَالنـاسُ فَوضـى لا تَمُـرُّ بِهِـمْ

إِلا عَلـى صَـنَمٍ قَـد هـامَ في صَـنَمِ

وَالأَرضُ مَملـوءَةٌ جَـورًا مُسَـخَّرَةٌ

لِكُـلِّ طاغِيَـةٍ في الخَلـقِ مُحـتَكِمِ

وَالخَلـقُ يَفتِـكُ أَقـواهُمْ بِأَضـعَفِهِمْ

كَاللَيثِ بِـالبَهْمِ أَو كَـالحوتِ بِـالبَلَمِ

أَسـرى بِـكَ اللَـهُ لَـيلاً إِذ مَلائِكُـهُ

وَالرُسلُ في المَسجِدِ الأَقصى عَلى قَـدَمِ

لَمّـا خَطَـرتَ بِـهِ اِلتَفّـوا بِسَـيِّدِهِمْ

كَالشُهبِ بِالبَـدرِ أَو كَالجُنـدِ بِـالعَلَمِ

صَـلّى وَراءَكَ مِنـهُمْ كُـلُّ ذي خَطَـرٍ

وَمَـن يَفُـز بِحَبيـبِ اللهِ يَـأتَمِمِ

جُبتَ السَماواتِ أو مـا فَـوقَهُنَّ بِهِـمْ

عَلَـى مُنَـوَّرَةٍ دُرِّيَّـةِ اللُجُـمِ

مَشِـيئَةُ الخَـالِقِ البَـارِي وَصَـنعَتُهُ

وَقُـدرَةُ اللهِ فَـوقَ الشَـكِّ وَالتُهَمِ

حَتَّـى بَلَغـتَ سَـماءً لا يُطَـارُ لَهـا

عَلَـى جَنَـاحٍ وَلا يُسعى عَلَـى قَـدَمِ

وَقيـلَ كُـلُّ نَبِـيٍّ عِنـدَ رُتبَتِـهِ

وَيـا مُحَمَّـدُ هَـذا العَـرشُ فَاستَلِمِ

خَطَطتَ لِلـدينِ وَالـدُنيا عُلومَهُمـا

يا قارِئَ اللَوحِ بَـل يـا لامِـسَ القَلَـمِ

يـا أَحمَـدَ الخَـيرِ لِي جـاهٌ بِتَسـمِيَتِي

وَكَيفَ لا يَتَسامى بِالرَسـولِ سَـمي؟

في هذ المعارضة تجد التناص ملموسا في نواحي كثيرة منها .

١- القصيدتان تسيران على منهج واحد ، فقد بدأ كل شاعر قصيدته متغزلا ، ثم ثنى بمديح النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وبين مواطن القدوة فيه ، وما يميزه من طيب خلق ، وعظمة رسالة ، وكذلك بيان مكانته المرموقة بين الأنبياء صلوات الله وتسليماته عليهم جميعا ، فالتناص ماثل في ذكر الأفكار نفسها عند شوقي .

٢- ومع تقليد شوقي ومحاكاته أفكار البوصيري نفسها ، إلا أنه يكسوها ألفاظا من عنده ، وهنا تبدو خصوصيته ومقدرته على الانتقاء والاختيار ، وهذا لا يقلل من جمال ما أتى به البوصيري من ألفاظ.

٣- البحر الشعري واحد في كلتا القصيدتين ، فقد نظم كل من الشاعرين قصيدته على تفعيلات بحر البسيط ، وهو بحر معروف بكثرة تفعيلاته ، ولا يستطيع السباحة فيه إلا كل ماهر صيرفي أوتي الدراية الكافية بالأوزان والتفعيلات وما تحوي لغة الضاد من دقائق وأسرار.

٤- وقد برز التناص واضحا في إيراد شوقي أبيات بعينها، وإن اختلفت في بعض الألفاظ ،في مواضع كثيرة من القصيدة ، لا بأس أن نورد بعضها :

يقول البوصيري :

يَا لاَئِمِي فِي الهوى الْعُذْرِيِّ معذرة
مِّنِّي إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ

ويقول شوقي :

يا لائمي في هواه، والهوى قدر لو شفك الوجد لم تعذل و لم تلم

ويقول البوصيري :

مَحَضْتَنِي النُّصْحَ لـٰكِن لَسْتُ أَسْمَعُهُ

إن الْمُحِبَّ عَنِ الْعُذَّالِ في صَمَمِ

ويقول شوقي :

لقد أنلتك أذنا غير واعية ورب منتصت والقلب في صمم

ويقول البوصيري :

فَاقَ النَّبِيِّيْنَ فِي خَلْقٍ وَّفي خُلُقٍ

ولم يُدَانُوهُ في عِلْمٍ وَلاَ كَرَمِ

ويقول شوقي :

صَلَّى وَرَاءَكَ مِنهُمْ كُلُّ ذي خَطَرٍ

وَمَن يَفُز بِحَبِيبِ اللهِ يَأْتَمِمِ

والمعارضة هنا تحمل قيما فنية عالية بما فيها من عمق أفكار، ووضوح معنى ، وبما تضم من صور جمالية وأساليب إنشائية وخبرية ، يمكن أن نتبينها ونقف على أسرار بلاغتها لو قمنا بتحليل النص بلاغيا ، ولكن المجال هنا ليس مجال تحليل نصي ، ولم تقلل معارضة شوقي ومحاكاته البوصيري من قيمة النص ، على ما فيه من تناص واتباع وتقليد .

==========

أما سينية البحتري ، التي كتبها متأثرا بما أصاب كسرى ومملكته ، والفرس وماضاع منهم من ملك كبير، فهذا نصها :

صنت نفسي عما يدنس نفسي ... وَتَرَفُّعتُ عَن جَدا كُلِّ جِبسِ

وَتَماسَكتُ حينَ زَعزَعَني الدَهـ ... ـرُ التِماسًا مِنهُ لِتَعسي وَنَكسي

بُلَغٌ مِن صُبابَةِ العَيشِ عِندي ... طَفَّفَتها الأَيّامُ تَطفيفَ بَخسِ

وَبَعيدٌ ما بَينَ وارِدِ رِفْهٍ ... عَلَلٍ شُربُهُ وَوارِدِ خِمسِ

وَكَأَنَّ الزَمانَ أَصبَحَ مَحمو ... لًا هَواهُ مَعَ الأَخَسِّ الأَخَسِّ

وَاشتِرائي العِراقَ خُطَّةُ غَبنٍ ... بَعدَ بَيعي الشَآمَ بَيعَةَ وَكسِ

لا تَرُزني مُزاوِلا لِاختِباري ... بَعدَ هَذي البَلوى فَتُنكِرَ مَسّي

وَقَديمًا عَهِدتَني ذا هَناتٍ ... آبِياتٍ عَلى الدَنِيّاتِ شُمسِ

وَلَقَد رابَني نُبُوُّ ابنُ عَمّي ... بَعدَ لينٍ مِن جانِبَيهِ وَأُسِ

وَإِذا ماجُفيتُ كُنتُ جَديرًا ... أَن أَرى غَيرَ مُصبِحٍ حَيثُ أُمسي

حَضَرَت رَحلِيَ الهُمومُ فَوَجَّهـ ... ـتُ إِلى أَبيَضِ المَدائِنِ عَنسي

أَتَسَلّى عَنِ الحُظوظِ وَآسى ... لِمَحَلٍّ مِن آلِ ساسانَ دَرسِ

أَذكَرَتنيهُمُ الخُطوبُ التَوالي ... وَلَقَد تُذكِرُ الخُطوبُ وَتُنسي

وَهُمُ خافِونَ في ظِلِّ عالٍ ... مُشرِفٍ يَحسِرُ العُيونَ وَيُخسي

مُغلَقٍ بابُهُ عَلى جَبَلِ القَبـ ... ـقِ إِلى دارَتَي خِلاطَ وَمُكسِ

حِلَلٌ لَم تَكن كَأطلالِ سُعدى ... في قِفارٍ مِنَ البَسابِسِ مُلسِ

ويقول:

وَمَساعٍ لَولا المُحاباةُ مِنّي ... لَم تُطِقها مَسعاةُ عَنسٍ وَعَبسِ
نَقَلَ الدَهرُ عَهدَهُنَّ عَنِ الـ ... ـجِدَّةِ حَتّى رَجَعنَ أَنضاءَ لُبسِ
فَكَأَنَّ الجِرْمازَ مِن عَدَمِ الأُنـ ... ـسِ وَإِخلالِهِ بَنِيَّةُ رَمسِ
لَو تَراهُ عَلِمتَ أَنَّ اللَيالي ... جَعَلَت فيهِ مَأتَمًا بَعدَ عُرسِ
وَهوَ يُنبيكَ عَن عَجائِبِ قَومٍ ... لا يُشابُ البَيانُ فيهِم بِلَبسِ
وَإِذا ما رَأَيتَ صورَةَ أَنطا ... كِيَّةَ اِرتَعتَ بَينَ روم وَفُرسِ
وَالمَنايا مَواثِلٌ وَأَنوشِر ... وانَ يُزجى الصُفوفَ تَحتَ الدِرَفسِ
في اخضِرارٍ مِنَ اللِباسِ عَلى أَصـ ... ـفَرَ يَختالُ في صَبيغَةِ وَرسِ
وَعِراكُ الرِجالِ بَينَ يَدَيهِ ... في خُفوتٍ مِنهُم وَإِغماضِ جَرسِ
مِن مُشيحٍ يَهوى بِعامِلِ رُمحٍ ... وَمُليحٍ مِنَ السِنانِ بِتُرسِ
تَصِفُ العَينُ أَنَّهُم جِدُّ أَحيا ... ءَ لَهُم بَينَهُم إِشارَةُ خُرسِ
يَغتَلي فيهِم ارتِيابي حَتّى ... تَتَقَرّاهُمُ يَدايَ بِلَمسِ
قَد سَقاني وَلَم يُصَرِّد أَبو الغَو ... ثِ عَلى العَسكَرَينِ شَربَةَ خُلسِ
مِن مُدامٍ تَظُنُّها وَهيَ نَجمٌ ... ضَوَّأَ اللَيلَ أَو مُجاجَةُ شَمسِ
وَتَراها إِذا أَجَدَّت سُرورًا ... وَارتِياحًا لِلشارِبِ المُتَحَسّي
أُفرِغَت في الزُجاجِ مِن كُلِّ قَلبٍ ... فَهيَ مَحبوبَةٌ إِلى كُلِّ نَفسِ

وَتَوَهَّمتُ أَنَّ كِسرى أَبَرويـ ... ـزَ مُعاطِيَّ وَالبَلَهبَذَ أُنسي

حُلُمٌ مُطبِقٌ عَلى الشَكِّ عَيني ... أَم أَمانٍ غَيَّرنَ ظَنّي وَحَدسي

وَكَأَنَّ الإِيوانَ مِن عَجَبِ الصَنـ ... ـعَةِ جَوبٌ في جَنبِ أَرعَنَ جِلسِ

يُتَظَنّى مِنَ الكَآبَةِ إِذ يَبـ ... ـدو لِعَيني مُصَبِّحٍ أَو مُمَسّي

مُزعَجًا بِالفِراقِ عَن أُنسِ إِلفٍ ... عَزَّ أَو مُرهَقًا بِتَطليقِ عِرسِ

عَكَسَت حَظَّهُ اللَيالي وَباتَ الـ ... ـمُشتَري فيهِ وَهوَ كَوكَبُ نَحسِ

فَهوَ يُبدي تَجَلُّدًا وَعَلَيهِ ... كَلكَلٌ مِن كَلاكِلِ الدَهرِ مُرسي

لَم يَعِبهُ أَن بُزَّ مِن بُسُطِ الديـ ... ـباجِ وَاستَلَّ مِن سُتورِ الدِمَقسِ

مُشمَخِرٌّ تَعلو لَهُ شُرُفاتٌ ... رُفِعَت في رُؤوسِ رَضوى وَقُدسِ

لابِساتٌ مِنَ البَياضِ فَما تُبـ ... ـصِرُ مِنها إِلا غَلائِلَ بُرسِ

لَيسَ يُدرى أَصُنعُ إِنسٍ لِجِنٍّ ... سَكَنوهُ أَم صُنعُ جِنٍّ لِإِنسِ

غَيرَ أَنّي أَراهُ يَشهَدُ أَن لَم ... يَكُ بانيهِ في المُلوكِ بِنُكسِ

فَكَأَنّي أَرى المَراتِبَ وَالقَو ... مَ إِذا ما بَلَغتُ آخِرَ حِسّي

وَكَأَنَّ الوُفودَ ضاحينَ حَسرى ... مِن وُقوفٍ خَلفَ الزِحامِ وَخَنسِ

وَكَأَنَّ القِيانَ وَسطَ المَقاصيـ ... ـرِ يُرَجِّعنَ بَينَ حُوٍّ وَلُعسِ

وَكَأَنَّ اللِقاءَ أَوَّلَ مِن أَمـ ... ـسِ وَوَشكَ الفِراقِ أَوَّلَ أَمسِ

وَكَأَنَّ الَّذي يُريدُ اتِّباعًا ... طامِعٌ في لُحوقِهِم صُبحَ خَمسِ

عُمِّرَت لِلسُرورِ دَهرًا فَصارَت ... لِلتَعَزّي رِباعُهُم وَالتَأَسّي

فَلَهـــا أن أُعينَهـــا بِـــدُموعٍ موقَفاتٍ عَلـى الصَبابَةِ حُـبسِ
ذاكَ عِندي وَلَيسَت الـدارُ داري بِاقتِرابٍ مِنها وَلا الجِنسُ جِنسـي
غَيرَ نُعمى لِأَهلِهـا عِنـدَ أَهلـي غَرَسوا مِن زَكائِهـا خَـيرَ غَـرسِ
أَيَّـدوا مُلكَنـا وَشَـدّوا قُـواهُ بِكُماةٍ تَحـتَ السَنَّورِ حُمـسِ
وَأَعـانوا عَلـى كَتائِـبِ أَريـا طَ بِطَعنٍ عَـلى النُحورِ وَدَعـسِ
وَأَراني مِن بَعدُ أَكلَـفُ بِالأَشـ ـرافِ طُرًّا مِن كُـلِّ سِـنخٍ وَأُسِّ

وهذه سينية شوقي ، التي قالها وهو في منفاه بالأندلس بعيدا عن مصر متفجعا مما أصابه من بين واغتراب ، ومتذكرا مصر ونيلها وتاريخها وحضارتها ، يقول فيها :

اخـتلاف النـهار والليـل ينسـي
اذكـرا لي الصـبا وأيـام أنسـي
وصـفا لي مـلاوة مـن شـباب
صـورت مـن تصـورات ومـس
عصـفت كالصـبا اللعـوب ومـرت
سـنة حلـوة ولـذة خلـس
وسلا مصر: هل سـلا القلـب عنـها
أو أسـا جرحـه الزمـان المؤسـي

كلمـــا مـــرت الليـــالي عليـــه

رق، والعهـــد في الليـــالي تقســـي

مســـتطار إذا البـــواخر رنـــت

أول الليـــل، أو عـــوت بعـــد جـــرس

راهـــب في الضـــلوع للســـفن فطـــن

كلمـــا ثـــرن شـــاعهن بنـــقس

يـــا ابنـــة الـــيم، مـــا أبـــوك بخيـــل

مالـــه مولعـــاً بمنـــع وحـــبس

أحـــرام علـــى بلابلـــه الـــدوح

حـــلال للطـــير مـــن كـــل جـــنس؟

كـــل دار أحـــق بالأهـــل إلا

في خبيـــث مـــن المـــذاهب رجـــس

نفســـي مرجـــل، وقلـــبي شـــراع

بهمـــا في الـــدموع ســـيري وأرســـي

واجعلـــي وجهـــك (الفنـــار) ومجـــراك

يـــد(الثغـــر) بـــين (رمـــل) و(مكـــس)

وطـــني لـــو شـــغلت بالخلـــد عنـــه

نـــازعتني إليـــه في الخلـــد نفســـي

وهفـــا بالفـــؤاد في سلســـبيل

ظمـأ للســواد مــن (عــين شمــس)

شــهد الله لم يغــب عــن جفــوني

شخصــه ســاعة و لم يخــل حســي

يـــا فـــؤادي لكـــل أمـــر قـــرار

فيــه يبــدو وينجلــي بعــد لــبس

علقـــت لجـــة الأمـــور عقـــولاً

طالت الحـوت طـول سـبح وغـس

غرقــت حيــث لا يصــاح بطــاف

أوغريـــق، ولا يصـــاخ لحـــس

فلــك يكســف الشــموس نهــاراً

ويســوم البــدور ليلــة وكــس

ومواقيـــت للأمـــور إذا مـــا

بلغتــها الأمــور صــارت لعكــس

دول كالرجـــال مرتهنـــات

بقيـــام مـــن الجـــدود وتعـــس

وليـــل مـــن كـــل ذات ســـوار

لطمـــت كـــل رب (روم) و(فـــرس)

سـددت بـالهلال قوسـاً وسـلت

خنجـرا ينفـذان مـن كـل تـرس

حكمت في القـرون (خوفـو) و(دارا)

وعفـت (وائـلاً) وألـوت (بعـبس)

أيـن(مـروان) في المشـارق عـرش

أمـوي وفي المغـارب كرسـي؟

سـقمت شمسـهم فـرد عليهـا

نورهـا كـل ثاقـب الـرأي نطـس

ثم غابت وكل شمـس سـوى هاتيـك

تبلـى ، وتنطـوي تحـت رمـس

وعظ (البحتـري) إيـوان (كسـرى)

شـفتني القصـور مـن (عبـد شمـس)

رب ليـل سـريت والـبرق طـرفي

وبسـاط طويـت والـريح عنسـي

أنظم الشـرق في (الجزيـرة) بـالغرب

وأطـوى الـبلاد حزنـاً لـدهس

في ديـار مـن الخلائـف درس

ومنـار مـن الطوائـف طمـس

وربى كالجنـــان في كنـــف الزيتـــون

خضـــر، وفي ذرا الكـــرم طلـــس

لم يـــرعني ســـوى ثـــرى قـــرطبي

لمســـت فيـــه عـــبرة الـــدهر خمســـي

يـــا وقـــى الله مـــا أصـــبح منـــه

وســـقى صـــفوة الحيـــا مـــا أمـــسي

قريـــة لا تعـــد في الأرض كانـــت

تمســـك الأرض أن تميـــد وترســـي

غشـــيت ســـاحل المحـــيط وغطـــت

لجـــة الـــروم مـــن شـــراع وقـــلس

ركـــب الـــدهر خـــاطري في ثراهـــا

فـــأتى ذلـــك الحمـــى بعـــد حـــدس

فتجلـــت لي القصـــور ومـــن فيهـــا

مـــن العـــز في منـــازل قعـــس

ســـنة مـــن كـــرى وطيـــف أمـــان

وصحا القلب مـــن ضـــلال وهجـــس

وإذا الـــدار مـــا بهـــا مـــن أنـــيس

وإذا القـــوم مـــا لهـــم مـــن محـــس

ورقيـــق مـــن البيـــوت عتيـــق

جـاوز الألـف غـير مـذموم حـرس

أثـــر مـــن (محمـــد) وتـــراث

صـار للـروح ذي الـولاء الأمـس

بلـــغ الـــنجم ذروة وتنـــاهى

بين (ثهـلان) في الأســاس و(قـدس)

مرمـــر تســـبح النـــواظر فيـــه

ويطـــول المـــدى عليهـــا فترســـي

وســـوار كأنهـــا في اســـتواء

ألفـات الـوزير في عـرض طـرس

فتـرة الـدهر قـد كسـت سـطريها

ماكتسى الهـدب مـن فتـور ونعـس

ويحهـــا ! كـــم تزينـــت لعلـــيم

واحـد الـدهر واسـتعدت لخمـس

وكـأن الرفيـف في مسـرح العـين

مـــلاء مـــدنرات الـــدمقس

ومكـــان الكتـــاب يغريـــك ريـــاً

ورده غائبـــاً فتـــدنو للـــمس

صـــــنعة(الـــــداخل) المبـــــارك في

الغـــرب وآل لـــه ميـــامين شمـــس

ويقول :

مـــن (لحمـــراء) جللـــت بغبـــار

الدهر كـالجرح بـين بـــرء ونكـس

كسنا الـبرق لـو محـا الضـوء لحظـاً

لمحتـها العيـون مـن طـول قـبس

حصـن (غرناطـة) ودار بـني الأحمـر

مـــن غافـــل ويقظـــان نـــدس

ويقول :

جلـــل الـــثلج دونهـــا رأس(شـــيرى)

فبـــدا منـــه في عـــصائب بـــرس

ســـــرمد شـــــيبه، ولم أر شـــــيئاً

قبلـــه يرجـــى البقـــاء وينســـي

مشت الحادثات في غـرف (الحمـراء)

مشـــي النعـــي في دار عـــرس

هتكـــت عـــزة الحجـــاب وفضـــت

ســدة البـــاب مـــن سمـــير وأنســـي

عرصـــات تخلـــت الخيـــل عنـــها

واســـتراحت مـــن احتـــراس وعـــس

ومغـــان علـــى الليـــالي وضـــاء

لم تجـــد للعشـــي تكـــرار مـــس

لا ترى غـــير وافـــدين علـــى التـــاريخ

ســـاعين في خشـــوع ونكـــس

نقلـــوا الطـــرف في نضـــارة آس

مـــن نقـــوش، وفي عصـــارة ورس

وقبـــاب مـــن لازورد وتـــبر

كـــالربى الشـــم بـــين ظـــل وشمـــس

وخطـــوط تكفلـــت للمعـــاني

ولألفاظهـــا بـــأزين لـــبس

وتـــرى مجلـــس الســـباع خـــلاء

مقفـــر القـــاع مـــن ظبـــاء وخـــنس

لا (الثريـــا) ولا جـــواري الثريـــا

يـــتزلن فيـــه أقمـــار إنـــس

مرمـــر قامـــت الأســـود عليـــه

كلـــة الظانـــر لينـــات المجـــس

تنشـــر المـــاء في الحيـــاض جمانـــاً

يـــتزى علـــى ترائـــب ملـــس

آخـــر العهـــد بـــالجزيرة كانـــت

بعـــد عـــرك مـــن الزمـــان وضـــرس

فتراهـــا تقـــول: رايـــة جـــيش

بـــاد بـــالأمس بـــين أســـر وحـــس

ومفاتيحهـــا مقاليـــد ملـــك

باعهـــا الـــوارث المضـــيع بـــبخس

خـــرج القـــوم في كتائـــب صـــم

عن حفاظ كموكـب الـدفن خـرس

ركبـــوا بالبحـــار نعشـــاً وكانـــت

تحـــت آبـــائهم هـــي العـــرش أمـــس

رب بـــان لهـــادم، وجمـــوع

لمشـــت ومحســـن لمخـــس

إمـــرة النـــاس همـــة لا تـــأنى

لجبـــان ولا تســـنى لجـــبس

يـــا ديـــاراً نزلـــت كالخلـــد ظـــلاً

وجـــنى دانيـــاً وسلســـال أنـــس

محسنات الفصول لا ناجر فيها

بقيظ ولا جمادى بقرس

لا تحش العيون فوق رباها

غير حور حو المراشف لعس

كسيت أفرخي بظلك ريشاً

وربا في رباك واشتد غرسي

هم بنو مصر لا الجميل لديهم

بمضياع ولا الصنيع بمنسي

من لسان على ثنائك وقف

وجنان على ولائك حبس

حسبهم هذه الطلول عظات

من جديد على الدهور ودرس

وإذا فاتك التفات إلى الماضي

فقد غاب عنك وجه التأسي

وفي هاتين القصيدتين تأثر واضح وتناص ملموس يمكن وضع أيدينا عليه.

وبداية نوضح أن المعارضة نظام خاص ، وقراءة خاصة يقوم بها المبدع للنص الغائب، يستطيع من خلالها بناء نصه الجديد عبر آليات : الاجترار، والامتصاص ، والحوار ، والمحاكاة ، ويبرز التناص بين المعارضتين السابقتين فيما يأتي:

١- كتب البحتري قصيدته السينية الخالدة التي جابت الآفاق ، وتناقلتها الألسنة والأقلام عبر عصور طويلة من الأدب ، وأشبعها النقاد ومتخصصو الأدب والنقد درسا وتحليلا ، كتبها البحتري عندما زار بلاد الفرس ورأى إيوان كسرى وما آل إليه حاله ، وحركت (صورة أنطاكية) بواعث الأسى والحزن وهو يرى الجنود والقادة الفرس في معاركهم التي خاضوها وأبلوا فيها بلاء حسنا ، وراح يسترجع أيام الفرس وما كان لها من صولة وجولة ، وما كان لكسرى من سلطان وصولجان ، فجاءت السينية محملة بمشاعر الأسى ، مفعمة بتباريح الألم والتحسر ، مبرزا أن الأيام دول، وأنه من المحال أن تدوم الدنيا على حال .

٢- والفكرة نفسها نجدها عند أمير الشعراء أحمد شوقي ، فقد كتب سنيته المشهورة بعيدا عن مصر ، وقد حرمه المحتلون منها عندما نفوه إلى الأندلس وهناك تذكر ربوع مصر وما فيها جمال طبيعة

واعتدال مناخ ، ويتذكر بنفس والهة ملهوفة تاريخ مصر العريق ، وما شاده ملوكها وأبناؤها العظام ، ويتناول آثارها وحضارتها من معابد وأهرامات وعمارة متميزة أبهرت العالم وجعلت مصر مثار الاهتمام ،ويتذكر نيلها العذب وما أفاض على الوادي من خير وعطاء ، وما أفاض عليه من زرع ونماء، ثم يجتر أيام صباه وذكرياته العذبة في ربوعها بين أهله وذويه ، فينفطر حزنا وألما ، ويزداد شوقا لتراب وطنه العظيم ، ويأسى لما آل إليه حال المصرين وقد فرقهم الاحتلال الإنجليزي وباعد بينهم وبين وطنهم لينفرد بخيرات مصر ينعم بها ويتقلب في خيرها .

٣- القصيدتان تسيران على إيقاع بحر واحد هو البحر الخفيف ، بما يحمل من تنوع في التفعيلات ، وهذا في حد ذاته أعطى الشاعرين مساحة واسعة للتعبير عن أبعاد تجربتهما ، فضلا عما في اختيار السين المكسورة رويا من توفيق ملحوظ ، فقد جاء معبرا عما يعانيه كل من الشاعرين من انكسار وحزن .

٤- ولا يقف التناص عند هذا الحد بل هناك أبيات عند شوقي تكاد تتفق في بعض ألفاظها ومعانيها مع ما كتبه البحتري نذكر نماذج منها :

يقول البحتري :

أَذكَرتِنيهُمُ الخُطوبُ التَوالي وَلَقَد تُذكِرُ الخُطوبُ وَتُنسي

ويقول شوقي :

اختلاف النهار والليل ينسي

اذكرا لي الصبا وأيام أنسي

ويقول البحتري :

لَم يَعِبهُ أَن بُزَّ مِن بُسُطِ الديـ ـباجِ وَاستَلَّ مِن سُتورِ الدِمَقسِ

ويقول شوقي :

وكأن الرفيف في مسرح العيـ ـن ملاء مدنرات الدمقس

ويقول البحتري :

أَتَسَلّى عَنِ الحُظوظِ وَآسى لِمَحَلٍّ مِن آلِ ساسانَ دَرسِ

ويقل شوقي :

حسبهم هذه الطلول عظات

من جديد على الدهور ودرس

ويقول البحتري:

تَصِفُ العَينُ أَنَّهُم جِدُّ أَحيا ءَ لَهُم بَينَهُم إِشارَةُ خُرسِ

ويقول شوقي :

خرج القوم في كتائب صم

عن حفاظ كموكب الدفن خرس

ويقول البحتري :

وَتَماسَكتُ حينَ زَعزَعَني الدَهـــ ـرُ التِماسًا مِنهُ لِتَعسي وَنَكسي

ويقول أمير الشعراء أحمد شوقي :

لا ترى غير وافدين على التاريخ

ساعين في خشوع ونكس

ولنا أن نطلع على نموذج آخر من المعارضات لنتبين ما فيه تناص وأخذ وما بينهما من تماثل ومحاكاة ، وتأمل معي نونية ابن زيدون التي يقول فيها :

أضْحَى التّنائي بَديلاً مِنْ تَدانِينَا،

وَنَابَ عَنْ طيبِ لُقْيانَا تجافِينَا

ألاّ وَقَد حانَ صُبحُ البَينِ، صَبّحَنا

حَيْنٌ، فَقَامَ بِنَا للحَيْنِ نَاعِينَا

مَنْ مبلغُ الملبسِينا، بانتزاحِهمُ،

حُزْناً، معَ الدهرِ لا يبلى ويُبْلِينَا

غِيظَ العِدا مِنْ تَساقِينا الهوَى فدعَوْا

بِأنْ نَغَصَّ، فَقالَ الدّهر آمينَا

فَانحَلّ ما كانَ مَعقُوداً بأنْفُسِنَا؛

وَانْبَتّ ما كانَ مَوْصُولاً بأيْدِينَا

وَقَدْ نَكُـونُ، وَمَـا يُخشَـى تَفَرّقُنـا،

فَـاليومَ نحـنُ، ومَـا يُرْجَـى تَلاقِينَـا

يا ليتَ شعرِي، ولم نُعتِـبْ أعـادِيَكم،

هَلْ نَـالَ حَظّـاً مـنَ العُتبَـى أعادِينَـا

لم نعتقِـدْ بعـدكمْ إلاّ الوفـاء لكُـمْ

رَأيـاً، ولَـمْ نَتقلّـدْ غَـيرَهُ دِينَـا

ما حقّنـا أن تُقِـرّوا عـينَ ذي حَسَـدٍ

بِنـا، ولا أن تَسُـرّوا كاشِـحاً فِينَـا

كُنّا نـرَى اليَـأسَ تُسْـلِينا عَوَارِضُـه،

وَقَـدْ يَئِسْـنَا فَمَـا لليـأسِ يُغْرِينَـا

ويقول :

بِنْـتُم وَبِنّـا، فَمـا ابتَلّـتْ جَوَانِحُنَـا

شَـوْقاً إلَـيكُمْ، وَلا جَفّـتْ مآقِينَـا

نَكادُ، حِـينَ تُنَـاجِيكُمْ ضَمائِرُنَـا،

يَقضِـي علَينـا الأسَـى لَـوْلا تأسّـينَا

حَالَـتْ لِفقـدِكُمُ أيّامُنـا، فغَـدَتْ

سُوداً، وكانـتْ بكُـمْ بِيضـاً لَيَالِينَـا

إذْ جانبُ العَيشِ طَلْقٌ من تألُّفِنا؛

وَمَرْبَعُ اللَّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا

وَإذْ هَصَرْنَا فُنُونَ الوَصْلِ دانيةً

قِطَافُها، فَجَنَيْنَا مِنْهُ ما شِينَا

لَيُسقَ عَهدُكُمُ عَهدُ السّرُورِ فَما

كنتم لأرواحِنَا إلاّ رَياحينَا

لا تَحْسَبُوا نَأيَكُمْ عَنّا يغيّرُنا؛

أنْ طالَما غيّرَ النّأيُ المُحِبّينَا!

وَاللهِ مَا طَلَبَتْ أهْواؤنَا بَدَلا

مِنْكُمْ، وَلا انصرَفتْ عنكمْ أمانينَا

ويقول:

يا ساريَ البَرْقِ غادِ القصرَ وَاسقِ بِه

مَن كانَ صِرْف الهَوى وَالوُدَّ يَسقينَا

وَاسألْ هُنالِكَ: هَلْ عَنّى تَذكُّرُنا

إلفاً، تَذكُّرُهُ أمسَى يعنّينَا؟

وَيَا نسيمَ الصَّبَا بلّغْ تحيّتَنَا

مَنْ لَوْ على البُعْدِ حَيّا كان يحيينا

فهـلْ أرى الـدّهرَ يقضـينا مسـاعفَةً
مِنْـهُ، وإنْ لم يكُـنْ غبّـاً تقاضِـينَا
رَبيـبُ مُلـكٍ، كَـأنّ اللّـهَ أنْشَـأهُ
مِسكاً، وَقَـدّرَ إنشـاءَ الـوَرَى طِينَـا
أوْ صَـاغَهُ وَرِقـاً مَحْضـاً، وَتَوجـهُ
مِـنْ نَاصِـعِ التّـبرِ إبْـداعاً وتَحسِـينَا
إذَا تَـأوّدَ آدَتْـهُ، رَفاهِيّـةً،
تُـومُ العُقُـودِ، وَأدمتَـهُ البُـرَى لِينَـا
كانتْ لَـهُ الشّـمسُ ظِئـراً في أكِلّتـه،
بَـلْ مـا تَحَلّـى لهـا إلاّ أحايِنَـا
كأنّمـا أثبَتَـتْ، في صَـحنِ وجنتِـهِ،
زُهْـرُ الكَوَاكِـبِ تَعويـذاً وَتَزيِينَـا
ما ضَـرّ أنْ لَمْ نَكُـنْ أكفـاءه شـرَفاً،
وَفي المَـوَدّةِ كـافٍ مِـنْ تَكَافِينَـا؟
يا رَوْضَـةً طالَمـا أجْنَـتْ لَوَاحِظَنَـا
وَرْداً، جَـلاهُ الصّـبا غضّـاً، وَنَسْـرِينَا

ويقول:

ويَـا حيـاةً تَمَلّيْنَـا، بزهرَتِهَـا،
مُـنىً ضَـروبَاً، ولَـذّاتٍ أفانينَـا

ويَـا نعِيمـاً خطرْنَـا، مِـنْ غَضـارَتِهِ،
في وَشْيِ نُعْمَى ، سـحَبنا ذَيلَـه حينَـا
لَسـنا نُسَـمّيكِ إجْـلالاً وَتَكْرِمَـةً؛
وَقَـدْرُكِ المُعْتَلـي عَـنْ ذاك يُغْنِينَـا
إذا انفرَدَتِ وما شُـورِكتِ في صِـفَةٍ،
فحسـبُنا الوَصْـفُ إيضَـاحاً وتبْيينَـا
يـا جنّـةَ الخلـدِ أُبـدِلنا، بسـدرَتِها
والكـوثرِ العـذبِ، زقّومـاً وغسـلينَا
كأنّنـا لم نبِـتْ، والوصـلُ ثالثُنَـا،
وَالسّعدُ قَدْ غَضَّ مـن أجفـانِ وَاشـينَا
إنْ كان قد عزّ في الدّنيا اللّقـاءُ بكـمْ
في مَوْقِـفِ الحَشـرِ نَلقـاكُمْ وَتَلْقُونَـا
سِـرّانِ في خـاطِرِ الظّلمـاءِ يَكتُمُنـا،
حـتى يكـادَ لسـانُ الصّـبحِ يفشـينَا
لا غَرْوَ في أنْ ذكرْنا الحزْنَ حينَ نهـتْ
عنهُ النُّهَـى ، وَتركْنـا الصّـبْرَ ناسِـينَا
إنّا قرَأنا الأسَى ، يوْمَ النّـوى ، سُـوراً
مَكتوبَـةً ، وَأخَـذْنَا الصّـبرَ يكفينـا

أمّـــا هـــواكِ، فلـــمْ نعـــدِلْ بِمَنْهَلِـــهِ
شُـــرْباً وَإنْ كـــانَ يُرْوِينَـــا فيُظمِينَـــا
لَمْ نَجْفُ أفـقَ جمـالٍ أنـتِ كوكبُـهُ
ســـالِينَ عنـــهُ، وَلم نهجُـــرْهُ قالِينَـــا
وَلا اخْتِيـــاراً تَجَنّبْنـــاهُ عَـــنْ كَثَـــبٍ،
لكـــنْ عَـــدَتْنَا، علـــى كُـــرْهٍ، عَوَادِينَـــا
نأسَى عَليـــكِ إذا حُثّـــتْ، مُشَعْشَـــعَةً،
فِينـــا الشَّـــمُولُ، وغنَّانَـــا مُغنّينَـــا
لا أكْؤسُ الـــرّاحِ تُبـــدي مـــن شمائِلِنَـــا
سِـــيّما ارْتيـــاحٍ، وَلا الأوْتـــارُ تُلْهِينَـــا

ويقول :

دومي على العهدِ، ما دُمنا، مُحافِظـةً،
فـــالحرُّ مَـــنْ دانَ إنْصـــافاً كمـــا دينَـــا
فَما استعضْـــنا خَلـــيلاً منـــكِ يحبسُـــنا
وَلا اســـتفدْنا حبيبـــاً عنـــكِ يثنينَـــا
وَلَوْ صبَا نحوَنَـــا، مـــن عُلـــوِ مطلعـــه،
بدرُ الدُّجى لم يكـــنْ حاشـــاكِ يصـــبِينَا
أبْكـــي وَفـــاءً، وَإنْ لم تَبْـــذُلي صِـــلَةً،
فَـــالطّيفُ يُقْنِعُنَـــا، وَالـــذّكرُ يَكفِينَـــا

وَفِي الجَـوَابِ مَتَـاعٌ، إنْ شَـفَعتِ بـهِ
بيضَ الأيادي، التي مـا زِلـتِ تُولينَـا
عليـكِ منّـا سَـلامُ اللّـهِ مـا بَقِيَـتْ
صَـبَابَةٌ بِـكِ نُخْفِيهَـا، فَتَخْفِينَـا

وهذه نونية شوقي :

يا نائح الطلح أشباه عـوادينا ... نشجى لواديك أم نأسى لوادينا ؟
ماذا تقـص علينـا غـير أن يـدا ... قصت جناحك جالت فى حواشينا؟
رمى بنا البين أيكا غـير سـامرنا ... أخا الغريب : وظلا غـير نادينـا
كل رمته النوى ريش الفراق لنـا ... سهماً ، وسل عليك البين سـكينا
إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصـدع ... مـن الجنـاحين عـي لا يلبينـا
فإن يك الجنس يابن الطلح فرقنا ... إن المصائب يجمعـن المصابينـا
لم تأل مـاءك تحنانـا ولا ظلمـاً ... ولا أدكارا ، ولا شـجوا أفانينـا
تجـر مـن فـنن سـاقا إلى فـنن ... وتسحب الذى ترتـاد المؤاسـينا
أساة جسمك شتى حين تطلبـهم ... فمن لروحك بالنطس المداوينـا

ويقول :

آهًا لنا نـازحى أيـك بأنـدلس ... وإن حللنـا رفيفـاً مـن روابينـا
رسم وقفنا على رسم الوفاء لـه ... نجيش بالدمع ، والإجـلال يثنينـا
لفتيـه لا تنـال الأرض أدمعهـم ... ولا مفـارقهم إلا مصـلينا

لو لم يسودوا بدين فيه منبهة ... للناس كانت لهم أخلاقهم دينا
لم نسر من حرم إلا إلى حرم ... كالخمر من بابل سارت لدارينا
لما نبا الخلد نابت عنه نسخته ... تماثل الورد خيريا و نسرينا
نسقى ثراهم ثناء ، كلما نثرت ... دموعنا نظمت منها مراثينا
كادت عيون قوافينا تحركه ... وكدن يوقظن فى الترب السلاطينا

ويقول :

لكن مصر وإن أغضت على مقة ... عين من الخلد بالكافور تسقينا
على جوانبها رفت تمائمنا ... وحول حافاتها قامت رواقينا
ملاعب مرحت فيها مآربنا ... وأربع أنست فيها أمانينا
ومطلع لسعود من أواخرنا ... ومغرب لجدود من أوالينا
بنا فلم نخل من روح يراوحنا ... من بر مصر وريحان يغادينا
كأم موسى على اسم الله تكفلنا ... وباسمه ذهبت فى اليم تلقينا
ومصر كالكرم ذى الإحسان فاكهة ... للحاضرين وأكواب لبادينا
يا سارى البرق يرمى عن جوانحنا ... بعد الهدوء ويهمى عن مآقينا
لما ترقرق فى دمع جوانحنا ... هاج البكا فخضبنا الأرض باكينا
الليل يشهد لم تهتك دياجيه ... على نيام و لم تهتف بسالينا
والنجم لم يرنا إلا على قدم ... قيام ليل الهوى للعهد راعينا

كزفـرة فى سمـاء الليـل حـائرة ... ممـا نـردد فيـه حـين يضـوينا

بالله إن جبت ظلماء العباب على ... نجانـب النـور محـدوا بجرينـا

تـرد عنـك يـداه كـل عاديـة ... إنسـاً يعـثن فسـاداً أو شـياطينا

حتى حوتك سمـاء النيـل عاليـة ... على الغيوث وإن كانت ميامينـا

وأحرزتك شفوف اللازورد على ... وشى الزبرجد من أفواف وادينـا

وحازك الريف أرجـاء مؤرجـة ... ربت حمائل واهتـزت بساتينـا

فقف إلى النيل واهتف فى حمائلـه ... وانزل كما نزل الطـل الرياحينـا

وآس مـا بات يذوى من منازلنا ... بالحادثات ويضوى من مغانينا

ويا معطرة الوادى سرت سحراً ... فطاب كل طروح مـن مرامينـا

ذكيـة الذيل لو خلنـا غلالتـها ... قمص يوسف لم نحسـب مغالينـا

ويقول :

أحشمت شوك السرى حتى أتيت لنا ... بـالورد كتبـاً وبالربـا عناوينـا

فلو جزيناك بـالأرواح غاليـة ... عن طيب مسراك لم تنهض جوازينا

هل من ذويـك مسـكى نحملـه ... غرائب الشوق وشيا من أمالينـا؟

إلى الـذى وجـدنا ود غيرهـم ... دنيا وودهمو الصافى هـو الـدينا

يا من نغار عليهم مـن ضـمائرنا ... ومن مصون هـواهم فى تناجينـا

ناب الحنين إلـيكم فى خواطرنـا ... عن الـدلال علـيكم فى أمانينـا

جئنا إلى الصبر نـدعوه كعادتنـا ... فى النائبات فلـم يأخـذ بأيـدينا

وما غلبنا على دمع ولا جلد ... حتى أتتنا نواكم من صياصينا
ونابغى كان الحشر آخره ... تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا
طوى دجاه بجرح من فراقكمو ... يكاد فى غلس الأسحار يطوينا
إذا رسى النجم لم ترفأ محاجرنا ... حتى يزول ، ولم تهدأ تراقينا
بتنا نقاسى الدواهى من كواكبه ... حتى قعدنا بها : حسرى تقاسينا
يبدو النهار فيخفيه تجلدنا ... للشامتين ويأسوه تأسينا

ويقول:

سقيا لعهد كأكناف الربى رفة ... أنا ذهبنا وأعطاف الصبا لينا
إذا الزمان بنا غيناء زاهية ... ترف أوقاتنا فيها رياحين
الوصل صافية ، والعيش ناغية ... والسعد حاشية، والدهر ماشينا
والشمس تختال فى العقيان تحسبها ... بلقيس ترفل فى وشى اليمانينا
والنيل يقبل كالدنيا إذا احتفلت ... لو كان فيها وفاء للمصافينا
والسعد لو دام،والنعمى لواطردت ... والسيل لو عف، والمقدار لو دينا
ألقى على الأرض حتى ردها ذهبا ... ماء لمسنا به الإكسير أو طينا
أعداه من يمنه التابوت وارتسمت ... على جوانبه الأنوار من سينا
له مبالغ ما فى الخلق من كرم ... عهد الكرام وميثاق الوفيينا
لم يجر للدهر إعذار ولا عرس ... إلا بأيامنا أو فى لياليننا
ولا حوى السعد أطغى فى أعنته ... منا جيادا ولا أرخى ميادينا

ويقول :

نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا ... ولم يهن بيد التشتيت غالينا

ولا يحول لنا صبغ ولا خلق ... إذا تلون كالحرباء شانينا

لم تنزل الشمس ميزانا ولا صعدت ... فى ملكها الضخ عرشا مثل وادينا

ألم تؤله على حافاته ورأت ... عليه أبناءها الغر الميامينا ؟

إن غازلت شاطئيه فى الضحي لبسا ... خمائل السندس الموشية الغينا

وبات كل مجاج الواد من شجر ... لوافظ القز بالخيطان ترمينا

وهذه الأرض من سهل ومن جبل ... قبل القياصر دناها فراعينا

ولم يضع حجرا بان على حجر ... فى الأرض إلا على آثار باننا

كأن أهرام مصر حائط نهضت ... به يد الدهر لا بنيان فانينا

أوأنه الفخم من عليا بمقاصره ... يفني الملوك ولا يبقي الأوانينا

كأنها ورمالا حولها التطمت ... سفينة غرقت إلا أساطينا

كأنها تحت لألاء الضحى ذهبا ... كنوز فرعون غطين الموازينا

أرض الأبوة والميلاد طيبها ... مر الصبا من ذيول من تصابينا

كانت محجلة ، فيها مواقفنا ... غرا مسلسلة المجرى قواقينا

فآب من كره الأيام لاعبنا ... وثاب من سنة الأحلام لاهينا

ولم ندع لليالي صافيا ، دعت ... بأن نغص فقال الدهر :آمينا

لو استطعنا لخضنا الجو صـاعقة والبر نار وغي ،والبحـر غسـلينا
سعيا إلى مصر نقضى حق ذاكرنا فيهـا إذا نسـي الـوافي وباكينـا
كـتر بحلـوان عنـد الله نطلبـه خير الودائع مـن خـير المؤدينـا
لو غاب كل عزيـز عنـه غيبتنـا لم يأته الشـوق إلا مـن نواحينـا
إذا حملنـا لمصـر أولـه شـجنا لم ندر أي هوى الأمين شـاجينا

وفي هذين النموذجين تناص ملحوظ :

- يبرز ابن زيدون في قصيدته ما يختلج في صدره من لواعج الشوق، وما يدور في نفسه من زفرات الأسى ، وما يحمل في قلبه من شوق وحنين فاق كل حد ، ثم يتذكر محبوبته ولادة ، ولا ينفك يذكر سماتها وما تتمتع به من جمال خلاب ، وروح طيبة طالما فاضت عليه ودا وحنانا ، وهي في ابتعادها تعتصره شوقا وحرمانا ،فلا ينفك يطلعنا على ما في داخله من تباريح الشوق وآلام الجوى متعلقا باللقاء الذي صار بعيد المنال في هذه الدنيا، ولكنه آمل فيه حتى ولو في مواقف الحشر ، يقول :

إنْ كان قد عزّ في الدّنيا اللّقـاءُ بكـمْ
في مَوْقِـفِ الحَشـرِ نَلقـاكُمْ وَنَلْقُونَـا

- أما أمير الشعراء أحمد شوقي فمحبوبته مصر، وقد باعد جنود الاحتلال الإنجليزي بينه وبينها فصار في منفاه يجترعبير الذكريات وأيام الصبا وساعات اللقاء بأهله وذويه ، ثم يتغنى بتاريخ مصر العريق ، ويصف حضارتها ، الرائعة ، وشمسها الساطعة ومناخها الطيب ، وما فيها من وابل صيب ، كما يشدو بنيلها العذب الذي غمر الوادي وملأه خصبا وجاد عليه بالنماء وفاض عليه بالخير والعطاء ، ويصف أهلها الطيبين وما يتمتعون به من طيب خلق وكرم .
- وقد وقَع الشاعران أنغام قصيدتيهما على إيقاع بحر البسيط الثري بتفعيلاته فأتاح لهما متسعا ومنحهما رحابة في التعبير عما يحملان من مشاعر وأفكار، أما حرف الرويّ (النون المشبعة بالألف) فما أجمله في موضعه ! لقد جاء مناسبا لحالة الأسى ، وما كان عليه الشاعران من وله وحزن في لحظات افتراقهما عن إلفهما .
- وهذا تناص ملموس في الأبيات ، نلمحه عند شوقي بارزا في ثنايا ومنعطفات نونيته مثل :

يقول ابن زيدون :

وَلا اخْتِيـاراً تَجَنَّبْنـاهُ عَـنْ كَثَـبٍ،

لكـنْ عَـدَتْنَا، علـى كُـرْهٍ، عَوَادِينَـا

ويقول شوقي :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا ؟

يقول ابن زيدون :

يا ساريَ البَرْقِ غادِ القصرَ وَاسقِ بـه

مَن كانَ صِرْف الهَوى وَالوُدَّ يَسقينَا

ويقول شوقي

يا سارى البرق يرمى عن جوانحنا بعد الهدوء ويهمى عن مآقينا

ويقول ابن زيدون

إنّا قرَأنا الأسَى ، يوْمَ النّوى ، سُوراً

مَكتوبَةً ، وَأخَذْنَا الصّبرَ يكفينا

ويقول شوقي

جئنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا فى النائبات فلم يأخذ بأيدينا

يقول ابن زيدون :

إذَا تَأوّدَ آدَتْهُ، رَفاهِيةٌ ،

نُومُ العُقُودِ، وَأدمتَهُ البُرَى لِينَا

كانتْ لَهُ الشّمسُ ظئراً في أكِلّتِه،

بَلْ ما تَجَلّى لها إلاّ أحايِينَا

ويقول شوقي :

ويا معطرة الوادى سرت سحراً فطاب كل طروح من مرامينا

ذكية الذيل لو خلنا غلالتها قميص يوسف لم نحسب مغالينا

يقول ابن زيدون :

أمّا هواكِ، فلمْ نعدِلْ بمَنْهَلِهِ

شُرْباً وَإنْ كانَ يُرْوِينَا فيُظمِينَا

لَمْ نَجْفُ أفقَ جمالٍ أنتِ كوكبُهُ

سالِينَ عنهُ، وَلم نهجُرْهُ قالِينَا

ويقول شوقي:

الليل يشهد لم تهتك دياجيه على نيام ولم تهتف بسالينا

والنجم لم يرنا إلا على قدم قيام ليل الهوى للعهد راعينا

هذه نماذج للمعارضات الشعرية التي أثرت ساحة الشعر، وأنبتت في جوانبه غراسا وارفة الأفنان تهمي بالعطر والريحان ، وما زالت تبعث في أرجائنا عطرا طيبا ، لم يغض من شأنها ما فيها من تناص ، ولم يقلل من قيمتها ما فيها من أخذ وتأثر.

وقد كتب أمير الشعراء أحمد شوقي إلى شاعر النيل حافظ إبراهيم، في سنة ١٩١٧ وكان شوقي منفياً في الأندلس فأرسل هذه الأبيات لحافظ إبراهيم:

يا ساكني مصر إنا لا نزال على عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم شيئاً نبل به أحشاء صادينا
كل المناهل بعد النيل آسنة ما أبعد النيل إلا عن أمانينا

فأجابه حافظ إبراهيم بهذه الأبيات:

عجبت للنيل يدري أن بلبله صاد ويسقي ري مصر ويسقينا
والله ما طاب للأصحاب مورده ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه وقد نأينا وإن كنا مقيمينا

ومن أنواع التناص :

٣ نثر المنظوم :

ويكون بتحويل القصيدة الشعرية إلى نص نثري ، وهذه الظاهرة قديمة، تناولها شيوخ النقد وأساتذته القدامى، أشار إليه الثعالبي في كتاب سماه (نثر النظم وحل العقد) ، كما تناوله أبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين في باب سماه (في حسن الأخذ وحل المنظوم)، وابن الأثير، وغيرهما من النقاد ، وليسمح لي القارىء المحترم باستعراض ما كتبه شيخنا الجليل العلامة ضياء الدين ابن الأثير.

تناول ابن الأثير ظاهرة نثر المنظوم في كتابه (الوشي المرقوم في حل المنظوم) وهو يختلف عن سابقيه الذين كتبوا في هذه الظاهرة ،

ذلك أن الثعالبي جعل كتابه نثر النظم وحل العقد إرضاء (لولي النعم أبي العباس خوارزم شاه) أما كتاب (الوشي المرقوم في حل المنظوم) فهو كتاب تعليمي ، يعلم فيه ابن الأثير ويهدف إلى إكساب القارىء مهارة حل المنظوم ونثره .

يعترف ابن الأثير – رحمه الله – أنه ليس أول من كتب في هذه المسألة ، وأن آخرين سبقوه في تناولها" ولئن سبقني إلى حل الشعر سابق ، وطرق ورده قبلي طارق ، فإنه ركب البحر إلي هجينا لا هجانا، وظن خواطري فيه سميعة بصيرة ، وكانت صما وعميانا ، وليس كل بيضاء شحمة ، ولا كل بيان حكمة ، وما مثل من سبقني في هذا الفن ومثلي إلا كما قال أبو تمام :

مثل العجوز التي ولت بشاشتها وبان عنها شباب كان يحظيها
لُزت بها ضرة زهراء واضحة كالشمس أحسن منها عند رائيها

على أن كلا من الناس باستحسان ما يقوله مغرى ، ولا يزال المرء في أمان من عقله حتى يؤلف كتابا (ص ٤٦) لعله يقصد من قوله هذا أنه متميز عن غيره فيما كتب عن حل المنظوم من الشعر ، وله الحق في ذلك .

وشيخنا الجليل لم يكتف – في كتابه – بحل منظوم الشعر، بل تطرق إلى نثر (شرح) الأخبار النبوية ، وشرح آيات القرآن الكريم .

" وأما حل (شرح) آيات القرآن العزيز، فليس كنثر المعاني الشعرية ، لأن ألفاظه ينبغي أن يحافظ عليها لمكان فصاحتها(ص ٢٤).

وقد قسم ابن الأثير كتابه إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : في حل الشعر

الفصل الثاني : في حل (شرح) آيات القرآن الكريم

الفصل الثالث : في حل (شرح) الأخبار النبوية

وهو في معرض تناوله حل المنظوم يدعو إلى ثلاثة أشياء :

١- حفظ القرآن الكريم

٢- حفظ ما ينبغي له من الأخبار النبوية

٣- حفظ كثير من الشعر العربي .

أما الفصل الأول والذي عنون له (حل الشعر) فقد قسمه إلى :

- حل الشعر بلفظه (وجعله عشرة أقسام)
- حل الشعر ببعض لفظه
- حل الشعر بغير لفظه

ويبين أن حل الشعر يأتي في المؤخرة " وهو أدناها مرتبة أن يحل الشعر بلفظه ، وهذا لأفضلية فيه ، وقد يجيء منه ما عليه مسحة من جمال، وذلك نزر يسير ، إلا أن الغالب على ما يحل بلفظه أن يأتي غثا باردا عليه قرة البلل، وفترة الخلل " (ص ٥٨) .

أما من يفعل ذلك – يحل الشعر بلفظه – فإنه يزري به وهو " كمن هدم بناء ثم أخذ تلك الآلات المهدومة فأنشأ بها بناء آخر ، فإنه يجيء مخلولق البناء لا محالة ، وكان الأولى منه أن ترك تلك الآلات واستجد آلات أخرى لتكون أحسن منه وأجمل " (ص ٥٩).

وهناك من الشعر ما لا يجوز حله (ويقصد به الحِكَم) كقول المتنبي :

لعل قولك محمود عواقبه وربما صحت الأجساد بالعلل

وكذلك الأمر في أمثال العرب المشهورة مثل :

- أن ترد الماء بماء أكيس
- إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا
- اليوم خمر وغد أمر

وفي إطار حل مثل هذه الحكم يقول " ولا بأس بتقديم لفظ وتأخيره في المثل إذا ورد على نصه وفصه " (ص ٦٤) ويمثل لذلك بنماذج منها :

مثل (أن ترد الماء بماء أكيس) يقول في حله " قلت في فصل يتضمن ذكر الرجل الحازم وهو قد خبر الدهر في حلب أفاويقه ، ونقض مواثيقه ، فهو لا يرد الماء إلا بالماء ، ولا يرتضي بمسرى أرض بنجوم سماء ، ومن شأنه أن يرود الأمور برأيه ، ولا يبعث فيها رائدا "(ص٦٤).

وفي حل مثل (إن كنت ريحا فقد لا قيت إعصارا) يقول : "لقونا وقد أشرعوا الأسنة التي شاركتهم الأسماء ، وإذا وردت أروتهم من غليل الحقد ، كما ترتوي من شرب الدماء ، لكن ذادها عن الورود ما هو أصلب منها عودا ، في يد من هو أمضى منهم حدا ، وأسعد جدودا، وإذا لا قت الريح إعصارا زالت عن طريقه ، وضاق ذرعها بمضيقه " (ص ٦٥).

كما بين أن من الأبيات التي لا يجوز حلها ما تناول أسماء القبائل والأشخاص ، والأبيات التي تتضمن تشبيهات راقية كقول امرىء القيس :

كان قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي

فقوله (رطبا ويابسا) و (العناب والحشف البالي) لا بد من ذكرهما كما ذكره امرؤ القيس ، لأنه تشبيه مخصوص بألفاظ مخصوصة فلا يمكن تغيير ألفاظه ، وقد نثرت هذا البيت فقلت

"وأشهب تفخر السوابق بأنها له سمية ، وترتمي الطير في جو السماء ، وهي له رمية ...ولقد تكاثرت قلوب الطير لديه في كل حال ، حتى شبه رطبها ويا بسها بالعناب والحشف البالي " (ص ٧٣).

ويقول في نثر بيت البحتري :

فـإذا الأسـنة خالطتـها خلتـها فيهـا خيـال كواكـب في مـاء

وقد قلت في نثره : " ولقد سنوا دروع الحديد على مثلها ، ولولا اتقاء البغي لرأوا حمل العار في حملها ، فإذا صافحتها أسنة الخرصان، رأيت أشخاص الكواكب في غدران " (٧٥) .

ويقول في نثر بيت امرىء القيس ،

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

" فإن ألفاظه : منجرد ، وكنات ، أوابد ، هيكل : فرائد في مكانها لا يجوز تبديلها بغيرها ، بل إذا أريد حله وجب المحافظة على تلك الفرائد ، وقد حللته فقلت في وصف فرس أدهم : وطالما امتطيت صهوة مطهم نهد ، فغنيت عن نشوة الكميت من ذات نهد ، يسابق الريح فيغير وجهها دون شق غباره ، وإن ظهر عليها رجعت حسرى في مضماره ، نسب إلى الأعوج ، وهو مستقيم الكر والفر ، وقد حنقت عليه الشمس ، إذ لا يمكنها أن ترسم ظله على الأرض إذا مر ، ليليّ الإهاب ،

لطم جبينه الصباح ببهائه، فغدا عليه وخاض يقتص منه في أحشائه ، وقد أغتدي عليه والطير في وكناتها، فلا يفوتني الأجدل ، وإذا أطلقته تصيد الوحش ، رأيتني على منجرد قيد الأوابد هيكل " (٨٥) .

وكذلك في نثر بيت الشعر ،

يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقي اللحاء

ينثره ابن الأثير محافظا عل ماتضمنه من حكمة ، ومحافظا على ما فيه من تشبيه له خصوصية ، وجاء بألفاظ خاصة أكسبته الخلود والبقاء ، مما يجعل تغيير ألفاظه سببا في إضعاف مافيه من فصاحة وبلاغة .

وفي قول أبي تمام ،

إذا حاربت في خلق لئيما فأنت ومن تجاريه سواء

يقول في نثر هذا البيت : " إذا ماشيت اللئيم في طرقه ، فقد سايرته في خلقه " ، ويقول عنه " إذا اتخذت اللئيم خليلا ، فقد صرت له عديلا " ويقول أيضا : " مجاراة اللئيم تسم وجه الحسب ، وتلحق النبع بالغرب ، فإن الخلق السيء يستتبع الخلق الحسن عل أثره ، وكدر الماء لا يبلغ بصفوه ، وصفوه مغلوب بكدره " (ص ٩١).

وفي إجمال طلب الرزق ،وأنه مقسوم لكل مخلوق ، غير مرتبط بقوة أو ضعف ، يورد ابن الأثير قول الشاعر :

يا طالب الرزق السني بقوة هيهات أنت بباطل مشغوف
أكل العقاب بقوة جيف الفلا ورعى الذباب الشهد وهو ضعيف

ويقول في حل هذا الشعر ونثره : " ينبغي للمرء ألا يحرص في طلب رزقه ، بل يكله إلى الله الذي تولى القسمة في خلقه ، فإن النسر يأكل الجيف بعنفه ، والنحل يرعى الشهد برفقه " (ص ٩٦).

ثم ينثر قول المتنبي ،

ترفق أيها المولى عليهم فإن الرفق بالجاني عتاب

ويزيد عليه (إن الرفق بالجاني عتاب ، والإحسان إليه متاب) ويقول " إذا أحسنت إلى الجاني في قبالة جنايته ، كان ذلك سببا لتوبته أن يعاود جناية " (ص ١١٨).

وفي قول القائل ،

خل عنا فإنما أنت فينا واو عمرو أو كالحديث المعاد

يقول : وقد أتيت بهذا المعنى على وجه آخر فقلت : " لم أر له في حظوظ المساعي من أثر ، فهو في عدم الحاجة إليه كواو عمرو ، وفي الامتناع من الصرف كراء عمر " (ص ١٤١).

وفي الفصل الثاني الذي خصصه لكيفية شرح ونثر آيات القرآن الكريم ، كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وضع ابن الأثير هذا الفصل تحت عنوان (حل آيات القرآن الكريم) وبدأ الحديث فيه داعيا إلى حفظ آيات القرآن الكريم وان يتخذ المرء في شرح آياته طريقا غير ما يتبع في حل الشعر وتثره ، مخاطبا القارىء قائلا : " واعلم أن كتاب الله هو أفصح الكلام وما ينبغي أن يسلك به مسلك الأشعار في حلها ، بل ينبغي أن يحافظ على ألفاظه لعدم القدرة على مماثلتها ومشابهتها " (ص ١٧٤) .

ويفرق ابن الأثير بين حل (شرح) الآية وأخذها بنصها ، لأن ذلك – في رأيه – ليس من هذا الفن في شيء، وغنما من باب التضمين .

وحل (شرح) آيات القرآن الكريم عنده على ضربين :

الأول : أن يؤخذ بعض الآية فيجعل أولا لكلام ، أو آخرا .

الثاني : أن يؤخذ معنى الآية الكريمة .

ويورد لذلك أمثلة نذكر منها :

- في ذم البخيل يقول :" جوده بعيد على الأمل ، غير مفتقر إلى العذل ، وإذا احتفل فهو نهر طالوت الذي حلل للغرفة لا للنهل ، وهذا مأخوذ من سورة البقرة في قول الله تعالى " فلما فصل

طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر، فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده " (ص ١٧٥).

- ويقول عن الاقتصاد في الرزق " الإنسان في كفالة الله يرزقه غير واثق ، وهو في كل طريق سالك ، ولكل باب فيه طارق ، وكثيرا ما يأتيه وهو عنه نائم ، ويقعد عنه وهو إليه قائم ، وهذا تعريف في ا ناهوك فاتح أبوابه ، ومسبب أسبابه ...وهذه معان شريفة عالية لا يلم بها إلا خاطر كان على المعاني غواصا ، ولأوان وحشها قناصا ، وبعض ذلك مأخوذ من من سورة العنكبوت في قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ...﴾ [سورة العنكبوت:٦٠].
- وفي مجال التعزية يقول : " لو ذهب الحزن بالدمع وانهماله ، والجزع وإعواله ، لكان الصبر بصاحبه أحرى ، ولو لم ينل به أجرا ، فكيف وصلاة الله ورحمته من ثوابه ؟ والجلالة والتقى مطويان في ضمن ثيابه ؟ وما اعتاد المرء صبرا عن المصاب إلا كان فيه عوضا عن مصابه . في هذا الكلام معنى مأخوذ من القرآن الكريم في سورة البقرة في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ....﴾ [سورة البقرة:١٥٧] (ص ١٨٣) .

وفي الفصل الثالث :

(حل الأخبار النبوية).

يوصي ابن الأثير بحفظ الأحاديث النبوية ؛ ويقسم حلها إلى قسمين:

الأول : أن يؤخذ بعض اللفظ فيجعل أولا .

الثاني: أن يؤخذ المعنى وحده ويتصرف فيه بوجوه التصرفات .

وهذه أمثلة مما تضمنها كتاب ((الوشي المرقوم في حل المنظوم)):

- يقول في حديثه عن الصدقة: "ليست الصدقة لمن مردت على المسألة نفسه ، حتى صار فيها لحوحا، وكلمتْ المطالب وجهه حتى أصبحت فيه كدوحا، إنما الصدقة لمن قمصه الفقر لباسا، فستره ذلك اللباس، وكان لا يفطن به فيتصدق عليه ، ولا يقوم فلا يسال الناس .

يقول :

" وهذا مأخوذ من موضعين من الأخبار النبوية : الأول قول النبي صلى الله عليه وسلم " المسائل كدوح يكدح بها المرء وجهه، إلا أن يسال السلطان ، أو في أمر لا يجد فيه بد " والثاني قوله صلى الله عليه وسلم "ليس المسكين من ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، إنما المسكين من لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس " (ص ١٩٨).

- ومما قاله ابن الأثير في بيان فضل الجهاد ووصف المسلمين : "وما منهم إلا من مشى إلى الحِمام مشي عمير بن الحُمام ، ورأى حياة يومه طويلة فقصرها بمبادرة الإقدام ، ولا يغلو ذلك لمن وجد سلعة الله سوقا ، وأحب أن يكون بعد موته حيا مرزوقا ، وهؤلاء هم سيوف الله التي إذا جردت زالت الهام عن مناكبها، واستوى في القتل أنفس مضروبها وضاربها، فلا عليها إذا جاهدت صابرة محتسبة ما كان من موارد هلكها ، ولا ألم عنها للكلوم إذا جاءت يوم القيامة ولونها لون الدم وريحها ريح مسك .

يقول :

" وههنا معنى ثلاثة أخبار : الأول : ما ورد في حديث غزوة بدر؛ وهو أنه قال النبي صلى الله عليه وسلم : " قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض " فقال عمير بن الحُمام : بخ بخ يا رسول الله ! فقال: ما حملك على قولك : بخ بخ ؟ قال : رجاء أن أكون من أهلها فقال : أنت من أهلها ، فأخرج تمرات من قرنه وجعل يأكلها ثم ألقاها من يده وقال : إن حييت آكل تمراتي هذه ، إنها لحياة طويلة! ثم مشى إلى العدو وقاتل حتى قُتل .

الثاني : قوله صلى الله عليه وسلم : " ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة " .

والثالث : ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في فضل الجهاد ، وهو قوله : " والذي نفس محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة ولونه لون الدم وريحه ريح مسك ".

وفيه أيضا معنى قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [سورة آل عمران:١٦٩] (ص ٢٠٦).

٤- ومن التناص (التقليد) :

المراد به هنا أخذ أفكار الآخرين والسير على نهجهم وتتبعهم في طرائق عرضها ، وما يسلكون إليها من سبل ، ومن ذلك :

- تقليد البارودي وشوقي للمتنبي في تضمين قصائدهم كثيرا من الحِكَم كما كان المتنبي يفعل ، وهذه طائفة من حِكَم المتنبي :

- أظمتني الدنيا فلما جئتها
مستسقيا مطرت علي مصائبا

-بذا قضت الأيام مابين أهلها
مصائب قوم عند قوم فوائد

-ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدوا له ما من صداقته بد

-مـــن يهـــن يســـهل الهـــوان عليـــه

مـــــا لجـــــرح بميـــــت ايـــــلام

-لـــولا المشـــقة ســـاد النـــاس كلـــهم

الجـــود يفقـــر والإقـــدام قتـــال

-وخير مكان في الـدنا سـرج سـابح

وخـــير جلـــيس في الزمـــان كتـــاب

-ما كـل مـا يـتمنى المـرء يدركـه

تجري الريـاح بمـا لا تشـتهي السـفن

-جود الرجال من الأيـدي وجـودهم

مـن اللسـان فـلا كـانوا ولا الجـود

-أبعـــين مفتقـــر إليـــك نظـــرتني

فـــأهنتني ورميـــتني مـــن حـــالق

-لســـت الملـــوم أنـــا الملـــوم لأنـــني

علقـــت آمـــالي بغـــير الخـــالق

-ولـــو كـــن النســـاء كمـــن فقـــدنا

لفضـــلت النســـاء علـــى الرجـــال

-فما التأنيث لاسـم الشـمس عيـب

ولا التـــذكير فخـــر للـــهلال

-قد كنت أشفق من دمعي على بصري

فـاليوم كـل عزيـز بعـدكم هانـا

-ذو العقـل يشـقى في النعـيم بعقلـه

وأخـو الجهالـة في الشـقاوة يـنعم

-إذا ساء فعـل المـرء سـاءت ظنونـه

وصـدق مـا يعتـاده مـن تـوهم

-ورب عائـب قـولا صـحيحا

وآفتـه مـن الفهـم السـقيم

-كفى بك داءا أن ترى الموت شـافيا

وحسـب المنايـا أن يكـن أمانيـا

-أمـا في هـذه الـدنيا كـريم

تـزول بـه عـن الـنفس الهمـوم

-ولم أر في عيـوب النـاس عيبـا

كـنقص القـادرين علـى التمـام

-ولما صـار ود النـاس خبّـا(كـذبا)

جزيـت علـى ابتسـام بابتسـام

-كلمـا أنبـت الزمـان قنـاة

ركـب المـرء في القنـاة سـنانا

-على غـير اختيـار قبلـت بـرك لي

والجـوع يرضـي الاسـود بـالجيف

-خلقت ألوفا لو رجعـت إلى الصبا

لفارقت شـيبي موجـع القلـب باكيـا

-إذا أنـت أكرمـت الكـريم ملكتـه

وإن أنـت أكرمـت اللئـيم تمـردا

-وما قتـل الأحـرار كـالعفو عنـهم

ومن لك بـالحر الـذي يحفـظ اليـدا

-شـر الـبلاد بـلاد لا صـديق بهـا

وشر ما يكسـب الإنسـان مـا يصـم

-إذا كان مـا تنويـه فعـلا مضـارعا

مضى قبـل أن تلقـى عليـه الجـوازم

-فصـرت إذا أصـابتني سـهام

تكسـرت النصـال علـى النصـال

-فصـرت لا أبـالي بالرزايـا

لأني مـا انتفعـت بـأن أبـالي

-وأتعـب خلـق الله مـن زاد همـه

وقصر عمـا تشـتهي الـنفس وجـده

-وإذا أتتـــك مـــذمتي مـــن نـــاقص

فهـــي الشـــهادة لي بـــأني كامـــل

-الحـــزن يقلـــق والتجمـــل يـــردع

والـــدمع بينـــهما عصـــي طيـــع

-يتنازعـــان دمـــوع عـــين مســـهد

هـــذا يجـــيء بهـــا وهـــذا يرجـــع

-وإذا كانـــت النفـــوس كبـــارا

تعبـــت في مرادهـــا الأجســـام

-لا يسلم الشرف الرفيـع مـن الأذى

حـــتى يـــراق علـــى جوانبـــه الـــدم

-إذا غـــامرت في شـــرف مـــروم

فـــلا تقنـــع بمـــا دون النجـــوم

-فطعـــم المـــوت في أمـــر حقـــير

كطعـــم المـــوت في أمـــر عظـــيم

-سلام الذي فوق السـماوات عرشـه

تخص به يا خـير مـاش علـى الأرض

-ولابد مـن شـكوى إلى ذي قرابـة

يواســـيك أو يســـليك أو يتوجـــع

• وهذا البارودي يقول في بعض حكمه تقليدا للمتنبي :

فيا حُسْنَ ذاك اليومَ لو كان باقياً ... ويا طيبَ هذا الليلِ لو دام طيِّبُ
يود الفتى ما لا يكونُ طماعةً ... ولم يدر أنّ الدهَر بالناس قُلَّبُ
ولو علم الإنسانُ ما فيه نفعُهُ ... لأبصرَ ما يأتي، وما يتجنَّبُ
ولكنها الأقدارُ تجري بحكمِها ... علينا، وأمرُ الغيبِ سِرٌّ مُحَجَّبُ

ويقول :

بادر الفرصة واحذر فوتها ... فبلوغ العز في نيل الفرص
واغتنم عمرك إبان الصبا ... فهو إن زاد مع الشيب نقص
إنما الدنيا خيال عارض ... قلما يبقى وأخبار تقص

ويقول أيضا :

لن ينال المرء بالعجز المنى ... إنما الفوز لمن همّ فنَص
إن ذا الحاجة ما لم يغترب ... عن حماه مثل طير في قفص
واترك الحرص تعش في راحة ... قلما نال مناه من حرص
واجتنب كل غبي مائق ... فهو كالعير إذا جد قمص
إنما الجاهل في العين قذى ... حيثما كان وفي الصدر غصص
واحذر النمام تأمن كيده ... فهو كالبرغوث إن جد قرص
واختبر من شئت تعرفه فما ... يعرف الأخلاق إلا من فحص

وعلى هذه الشاكلة يقلد شوقي سابقيه : المتنبي والبارودي ، حتى لا تكاد تجد قصيدة من قصائده إلا وفيها أثر من خبرته الطيبة ، أوحِكَما من حِكمه :

مثل :

أجد الحياة حياة دهر ساعةً ... وأرى النعيم نعيم عمرٍ مقصرا

وأعد من حزم الأمور وعزمها ... للنفس أن ترضى وألا تضجرا

يا أيها السجناء في أموالهم ... أأمنتمو الأيام أن تتغيرا؟

لا يملك الإنسان من أحواله ... ما تملك الأقدار مهما قدرا

لا يبطرنك من حرير موطئ ... فلرب ماشٍ في الحرير تعثرا

ويقول :

جناية الجهل على أهله ... قديمة والجهل بئس الدليل

ويقول :

ولولا المحسنون بكل أرض ... لما ساد الشعوب ولا استقلوا

ويقول :

ما كل أهل الزهد أهل الله ... كم لاعبٍ في الزاهدين لاه!

ويقول أيضا :

صاح لا تخش عظيما ... فالذي في الغيب أعظم

ومن التقليد :

- **تقليد الغربيين في الرمزية والتشاؤم وإظهار الحزن :**

الرمز اصطلاحا : هو اللفظ القليل المشتمل على معان كثيرة بإيماء إليها ، أو لمحة تدل عليها .

وقد ظهرت الرمزية في العصر الحديث ، وعُرف بها الشعراء المنتمون إلى المذهب الرومانسي ، ليلهم إلى الولوج إلى العالم الذاتي للشاعر ، وما فيه من أحاسيس وانفعالات ، ولأنه يناسب الأجواء الغامضة التي يصعب تحديدها وإيضاحها، فالرمز يوجز المعاني الكثيرة، ويوحي بالدلالة دون الحاجة إلى التفصيل والبيان، ويجعل لدى المتلقي جواً من التفاعل والدخول في حالة مشاركة مع الشاعر ، وكان لكلٍّ شاعر رومانسي رؤيته الرمزية وعالمه الخاص:

ففي الغرب :

- كان الشاعر (شيلّي) يكثر من رموز الكهف والزورق والساقية والأفعى والصقر، وكان يرمز بالقمر والعندليب والنوم .
- وكان فيكتور هوجو يعشق الرموز الأسطورية والطبيعية المملوءة بالمهابة والرهبة
- وكانت أساطير اليونان وما تحمل من رموز ذات تأثير كبير في كتابات الغربيين .

وقد انتقلت عدوى الرمزية ، كما انتقل غيرها – مع أشياء كثيرة– إلى شعرنا العربي ، وحسبك أن تتأمل دواوين الشعراء المعاصرين لتتلمس الرمز واضحا جليا .

والرمزية العربية تعتمد على أساسين هما :

١- تناول المعنى بعبارات موجزة .

٢- التعبير عن الفكرة بطريقة غير مباشرة .

وفي إطلالة على موقف الشعراء العرب من الرمزية نجدها بادية لا تخطئها العين :

- فهذا (إيليا أبو ماضي) يقول في قصيدة المساء:

السحب تركض في الفضاء الرحب ركض الخائفين
والشمس تبدو خلفها صفراء عاصبة الجبين
لكنما عيناك ذاهبتان في الأفق البعيد
سلمى بماذا تفكرين ؟
سلمى بماذا تحلمين ؟
أرأيت أحلام الطفولة تختفي خلف التخـــوم ؟
أم أبصرت عيناك أشباح الكهولة في الغيوم ؟
أم خفت أن يأتي الدجى الجاني ولا تأتي النجوم؟
أنا لا أرى ما تلمحين من المشاهد إنما

أطلالها في ناظريك تنم يا سلمى عليك

في هذا الجزء من القصيدة رموز كثيرة أتى بها (إيليا أبو ماضي) تقليدا للرومانسيين الغربيين وتناصا معهم ، وماأتى به من رموز نلمسه فيما يلي :

- الشمس الصفراء رمز لرحيل العمر .
- وسلمى هنا رمز للإنسان بوجه عام .
- والدجى الجاني رمز للنهاية العمر .
- والعنوان نفسه (المساء) رمز لانقضاء العمر .

وفي شعر بدر شاكر السياب كثير من الرمز :

فشبح الموت، هو الفكرة التي سيطرت على عقله وكيانه ، فلا ينفك يذكر الموت كثيرا ، ويصف حالة القبر في شعره. ويجعل منه رمزاً في حالة اليأس والفشل ، وهو الذي جعله في مراحل العمر يتذمر من الملال والأسى و يبكي و ينتحب كالسجين ويتمنى أن تطلق عليه رصاصة الرحمة فيقول:

في ليالي الخريفِ الطوال؛

آه لو تعلمينْ

كيف يَطغى عليّ الأسى و الملال؟!

في ضلوعي ظلامُ القبور السجين،

في ضلوعي يصبح الردى
بالتراب الذي كان أمي: "غدا
سوف يأتي. فلا تقلقي بالنحيب
عالَمُ الموت حيث السكون الرهيب!
سوف أمضي كماجئتُ واحسرتاه !
رصاصة الرحمة يا إله .

وهذا محمود حسن إسماعيل يرى في (الموج) رمزا لكل ما يكدر النفس البشرية ويحول بينها وبين السمو والانطلاق من شهوات وذنوب ومعاصٍ ، كما نلمح في شعره بعض مصطلحات الصوفية مثل : الحقيقة ، السر ، الوجد ، كل هذه الرموز نلمحها في قوله :

مزقي عن وجهك اليانع أسمال القناع
وارفعي الستر بلا خوف على أي متاع
زادك النور وفي دربك ينبوع الشعاع
فانفذي فالسر إن سرت على قيد ذراع
واصرعي الموج ، ولو أقبلت من غير شراع
واركبي الإعصار والإصرار في وجه القلاع
إنما الخائف عند الزحف محتوم الضياع

أما (البحر) في شعر محمود درويش ، فيحتل مساحة كبيرة ، واستمع إليه يقول :

يا بحر البدايات إلى أين تعود ؟

أيها البحر المحاصر

بين أسبانيا وصور

هاهي الأرض تدور

لماذا لا تعود الآن من حيث أتيت ؟

آه من ينقذ هذا البحر ؟

دقت ساعة البحر

تراخى البحر

ويقول في القصيدة نفسها :

هل يموتُ البحرُ كالإنسان في الإنسان

أمْ فِي البحرِ؟

لا شيء يثير البحرَ في هذا المكانِ

ويقول:

حين نعتادُ الرحيلْ

مَرَّةً

تصبح كُلُّ الأمكنهْ

زَبَداً نطفو عَلَيهْ

ونميلْ

كلما مالَت بنا الريحُ

ونعتادُ بُكاء الأحصنهْ

حين نعتاد الرحيلْ

مَرَّةً

تصبح كُلُّ الأزمنهْ

لحظةً للقتل

كم مُتنا وكم مُتنا,

وكان الكَهَنَهْ

خَدَماً للسيف منذ المعبد الأوَّلِ

حتى آخر الثورات/

والعاشقُ عَبْدَ السوسنه

....وسلاماً أيَّتُها الأرضُ الأسيرةْ

يا التي كانت عقابَ الله فينا

ثم صارت جَنَّةَ الله الصغيرةْ....

من سيحتاجُ ضحيَّه

ليرى البحر أمَامَهْ؟

من سيحتاج يمامهْ

ليُرَبِّي طفلَهُ في البندقيةْ؟

من سيحتاج الضحيّةْ

فهو يجعل من البحر رمزا للقوة والعظمة والغموض ، ويجعله نقطة انطلاق يفرغ من خلالها ما في نفسه من معان وأحاسيس .

وفي شعر نزار قباني نرى المرأة تحتل المقدمة فيما يأتي من رموز، هي عنده في كثير من شعره رمز للوطن ويشير إلى ذلك حين يقول :

كلما غنيت باسم امرأة

أسقطوا عني قوميتي وقالوا

كيف لا يكتب شعرا للوطن

فهل المرأة شيء آخر غير الوطن ؟

آه لو يدرك من يقرؤني

أن ما أكتبه في الحب

مكتوب لتحرير الوطن

وهناك الرمز الشعوري المأخوذ من ذاكرة الأدب العربي القديم والذي نلمحه في قول الشاعر مصطفى المسعودي :

آه كم أكره هذا الواقع

أورثني المتنبي نخوته

أورثني ابن الرومي دمعته

أورثني المجنون شقاوته

أورثني الذل العربي الراهن بلواه

ما أصعب أن يحيا الإنسان سجينا

منقسما بين ظلام الواقع

وزمان ضيعناه

لكن ...ارفع رأسك

في أعماقك تحمل روح الله

نلمح في هذا النموذج الشعري توظيفا للرمز الشعوري ، إذ يسترجع الشاعر الموروث الشعري العربي القديم ، ويجعل منه وسيلة يعبر بها عن رفضه الواقع المؤلم الذي تعيشه أمتنا العربية كما يعبر عن رفضه هذا الذل وهذا الانكسار.

أما ما يشيع في قصائد الشعراء الرومانسيين من نبرة الأسى والحزن فكثير نلمحه عند شعراء أبوللو والمهجر وغيرهم من الشعراء ، يقول إبراهيم ناجي:

ياحبيبـــا زرت يومـــا أيكـــه طـــائر الشـــوق يغـــني ألمـــي

لـــك إبطـــاء المـــذل المـــنعم وتجـــني القـــادر المحـــتكم

وحنـــيني لـــك يكـــوي أضـــلعي والثـــواني جمـــرات في دمـــي

ويقول :

أعطـــني حـــريتي أطلـــق يـــديا ... إنني أعطيت مـــا اســـتبقيت شـــيا

آه مـــن قيـــدك أدمـــى معصـــمي ... لم أبقيـــه ومـــا أبقـــى عليـــا؟

ما احتفـــاظي بعهـــود لم تصـــنها ... وإلام الأســـر والـــدنيا لـــديا؟

ويقول خليل مطران في قصيدة المساء :

إني أقمـــت علـــى التعلـــة بـــالمنى ... في غربـــة قـــالوا تكـــون دوائـــي

إن يشف هذا الجسم طيب هوائها ... أيلطـــف الـــنيران طيـــب هـــواء؟

عبـــث طـــوافي في الـــبلاد وعلـــة ... في علـــة منفـــاي لاستشـــفائي

ويقول :

ولقد ذكرتـــك والنـــهار مـــودع ... والقلـــب بـــين مهابـــة ورجـــاء

وخواطري تبدو تجـــاه نـــواظري ... كلمى كدامية الســـحاب إزائـــي

والدمع من جفني يسيل مشعشعا ... بسنا الشـــعاع الغـــرب المترائـــي

والشمس في شفق يسيل نضـــاره ... فوق العقيـــق علـــى ذرا ســـوداء

مرت خـــلال غمـــامتين تحـــدرا ... وتقطـــرت كالدمعـــة الحمـــراء

فكأن آخـــر دمعـــة للكـــون قـــد ... مزجـــت بـــآخر أدمعـــي أرثـــائي

وكـــأنني آنســـت يـــومي زائـــلا ... فرأيت في المرآة كيـــف مســـائي؟

تأمل كيف حول الشاعر منظر الغروب الجميل إلى مشهد حزين مؤلم يبعث الأسى في النفس ، فالخواطر حزينة ، والشمس دامعة

باكية، تميل وتغرب منحدرة على سحاب أسود ، وفي هذا المشهد الجنائزي المهيب نرى الكون يبكي مشاركة للشاعر، وكأنه يرى نهايته ماثلة في مرآة هذا المساء الحزين .

وفي هذا تناص بين الشاعر وبين الومانسيين الغربيين من خلا تقليدهم في تشاؤمهم ، وسريان نزعة الحزن والألم في ثنايا قصائدهم .

ومن أنواع التناص :

٥ - الأخذ من الموروث الديني :

مثل تضمين الشعر آيات من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف ، وأمثلة ذلك كثيرة منها :

قول المتنبي :

أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

ومن شواهد العقد الفريد :

قال الحسين بن الحسن الدمشقي :

وأشهد معشرا قد شاهدوه

عنت لجلال هيبته الوجوه

أنلني بالذي استقرضت خطا

فإن الله خلاق البرايا

يقول إذا تداينتم بدين فاكتبوه

مأخوذ من قول الله تعالى: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ... ﴾ [سورة طه:١١١] ، وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ... ﴾ [سورة البقرة:٢٨٢] .

ويقول ابن النبيه في مدح الفاضل :

قمت ليل الصدود إلا قليلا	ثم رتلت ذكركم ترتيلا
ووصلت السهاد أقبح وصل	وهجرت الرقاد هجرا طويلا
وفؤادي قد كان بين ضلوعي	أخذته الأحباب أخذا وبيلا
قل لراقي الجفون إن لعيني	في بحار الدموع سبحا طويلا
ماس عجبا كأنه ما رأى	طليحا ولا كثيبا مهيلا
وحمى عن محبه كأس ثغر	كان منه مزاجها زنجبيلا
بان عني فصحت في أثر العيس	ارحموني وأمهلوهم قليلا

واضح جلي ما في هذا النموذج من تناص ، فهو مأخوذ من قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ ﴾ [سورة المزمل ١ :٤] ومن قوله في السورة نفسها : ﴿ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ [سورة المزمل:٧] وقوله: ﴿ ... وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ [سورة المزمل: من الآية ١٤] وقوله: ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ [سورة المزمل:١١] وقوله: ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ۝١٦ ﴾ [سورة المزمل:١٦] .

ومنه أيضا :

ما قاله الشاعر المصري الكبير: محمد عفيفي مطر، في قصيدته: (امرأة ليس وقتها الآن) التي نُشرت في ديوان: (أنت واحدها وهي أعضاؤك انتثرت ١٩٨٦م) ، يقول :.

اصدعْ بما تحلمُ
الوقتُ أوسَعُه مرٌّ
أضيَقُه مرٌّ، أنت تخطيتها
أربعون من العمر ولّت، بلاد تولّتْ
فليتك تملي ولاءكَ للحلمِ

ثم يتناول الشاعر في قصيدته وصف حال من أخرجوه من الأرض ، وأبعدوه عن وطنه عنوة ، بقوله :

أخرجوكَ من الأرضِ، كانت حواراتهمْ
لغةً لستَ منها
الشوارعُ أوسعُها أضيقُ الصرخات بقلبكَ
وحشيةُ الجوعِ آنسُها يتفصّدُ بالرعبِ
لا تعدُ عيناكَ عنهمْ إذا دخلوا الحلم أو خرجوا

وهو بذلك يتناص مع القرآن الكريم في قوله تعالى لنبيه الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) " وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ

رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ".

٦ - ومنه تناص الفكرة :

بمعنى أن يأخذ شاعر فكرة شاعر آخر ويكسوها ألفاظا من عنده

مثل قول معروف الرصافي :

يا قوم لا تتكلموا إن الكلام محرم

ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوم

وتأخروا عن كل ما يقضي بأن تتقدموا

ودعوا التفهم جانبا فالخير أن لاتفهموا

وتثبتوا في جهلكم فالشر أن تتعلموا

أما السياسة فاتركوا أبدا وإلا تندموا

إن السياسة سرها لو تعلمون مطلسم

وإذا أفضتم في المباح من الحديث فجمجموا

والعدل لا تتوسموا والظلم لا تتجهموا

من شاء منكم أن يعيش اليوم وهو مكرم

فليمس لا سمع ولا بصر لديه ولا فم

لا يستحق كرامة إلا الأصم الأبكم

ودعوا السعادة إنما هي في الحياة تـــوهم

فالعيش وهو منعم كالعيش وهو مذمم

فارضوا بحكم الدهر مهما كان فيه تحكم

وإذا ظلمتم فاضحكوا طربا ولا تتظلموا

إن قيل : هذا شهدكم مر فقولوا : علقم

أو قيل إن نهاركم ليل ، فقولوا : مظلم

أو قيل: إن ثماركم سيل، فقولوا مفعم

أو قيل:إن بلادكم يا قوم سوف تقسم

فتحمدوا وتشكروا ..وترنحوا وترنموا

أخذ الجواهري الفكرة نفسها فرأيناها متناولة بأكملها في قصيدة أسماها :

(تنويمة الجياع) يقول فيها :

نـــامي جيـــاع الشـــعب نـــا مـــي حرستك آلهـــة الطعـــام

نـــامي فـــإن لم تشـــبعي مـــن يقظـــة فمـــن المنـــام

نـــامي علـــى زبـــد الوعـــو د يـــزين معســـول الكـــلام

نـــامي تـــزرك عـــرائس الأ حـــلام في جـــنح الظـــلام

وتـــرى زرائبـــك الفســـا ح مبلطـــات بالرخـــام

نـــامي فقـــد أضـــفى "العـــرا ء" عليـــك أثـــواب الغـــرام

نامي فقد أهى "مجيع الشعب" ايام الصيام

نامي فقد غنى "إله الحرب" ألحان السلام

نـــامي و ســـيري في منـــا ... مـــك مـــا اســـتطعت إلى الأمـــام

نـــامي علـــى تلـــك العظـــا ... ت الغـــر مـــن ذاك الإمـــام

يوصـــــيك ألا تطعمـــــي ... مـــن مـــال ربـــك في خطـــام

يوصـــيك أن تـــدعي المبـــا ... هـــج و اللذائـــذ للئـــام

و تعوضـــي عـــن كـــل ذل ... ك بالســـج ود و بالقيـــام

نـــامي فنومـــك خ يـــر مـــا ... حمـــل المـــؤرخ مـــن وســـام

ويقول :

نـــامي فـــإن صـــلاح أمـــ ... ـــر فاســـد في أن تنـــامي

و العـــروة الـــوثقى! إذا اســـ ... ـــتيقظت تـــؤذن بانفصـــام

نـــامي وإلا فالصـــفو ... ف تـــؤول منـــك إلى انقســـام

نـــامي تريحـــي الحاكمـــ ... ـــين مـــن اشـــتباك و التحـــام

نـــامي فجـــدران الســـجو ... ن تعـــج بـــالموت الـــزؤام

نـــامي علـــى جـــور كمـــا ... حمـــل الرضـــيع علـــى الفطـــام

نـــامي إليـــك تحـــيتي ... و عليـــك نائمـــة ســـلامي

نـــامي جيـــاع الشـــعب نـــا ... مـــي حرســـتك إلهـــة الطعـــام

في النصين تناص ملموس ، فالفكرة واحدة ، حيث نرى الموضوع واحدا يدور في فلك التهكم والسخرية من الأوضاع السيئة التي تعيشها الشعوب ، فالرصافي يحذر قومه من الكلام ويطلب منهم الصمت ، ويحذرهم من الشكوى ، ويطلب منهم الرضا بما يقع عليهم من ظلم ويدعوهم إلى القناعة بما يقدم لهم من فتات وبقايا ، ويبين لهم أن السعادة كل السعادة في السكوت والخنوع .

وهذا الجواهري يدعو قومه إلى النوم والخلود إلى الدعة ، فقد تبسمت الحياة ، وحل السلام ، وانقشعت سحب الحرب ، وعم الصلاح، ولم يعد للفساد مكان ، ويحثهم على النوم والرقاد حتى تستقيم أمور الحياة ، وهو يبين لهم ان النوم راحة لهم من عناء كبير ، وراحة للحاكمين لانهم يرون السعادة في غفلة شعوبهم .

وواضح أن قول الرصافي :

يا قوم لا تتكلموا إن الكلام محـرم ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوم

- أخذه الجواهري ونسج قصيدته من فعل الأمر (نامي) والذي كرره سبعة عشر مرة في ثنايا قصيدته .
- غير أن الرصافي صاغ قصيده من بحر الكامل (التام) بينما صاغ الجواهري قصيده من الكامل (المجزوء) .

٧ - التناص التاريخي:

يعرف التناص التاريخي بأنه تداخل نصوص تاريخية مختارة ومنتقاة مع النص الأصلي للقصيدة تبدو مناسبة ومنسجمة لدى المؤلف.

ومن ذلك نص (جدارية) للشاعر محمود درويش، يقول فيها :

"هزمتك يا موت الفنون جميعها.

هزمتك يا موت الأغاني في بلاد

الرافدين . مسلة المصري. مقبرة الفراعنة،

النقوش على حجارة معبد هزمتك

وانتصرت ، وأفلت من كمائنك

الخلود..."

يتضح التناص عند الشاعر هنا في استجلاء صفحات من التاريخ المتمثل في حضارة الرافدين ، وحضارة الفراعنة ، وما تضم من مسلات وآثار وأحجار ومقابر دالة على ما قدمته هاتان الحضارتان من فن وعلم ومعارف أفادت البشرية ، وأشاعت في أرجائها العمران والتقدم .

ومن التناص التاريخي في شعر نزار قباني قصيدته التي يقول فيها :

في مدخل " الحمراء " كان لقاؤنا ..
ما أطيب اللقيا بلا ميعاد !
عينان سوداوان.. في حجريهما
تتوالد الأبعاد من أبعاد
هل أنت إسبانية؟ .. ساءلتها
قالت: وفي غرناطة ميلادي
غرناطة! وصحت قرون سبعة
في تينك العينين.. بعد رقاد
وأمية .. راياتها مرفوعة
وجيادها موصولة بجياد
ما أغرب التاريخ.. كيف أعادني
لحفيدة سمراء.. من أحفادي
وجه دمشقي .. رأيت خلاله
أجفان بلقيس .. وجيد سعاد
ورأيت منزلنا القديم .. وحجرة
كانت بها أمي تمد وسادي
والياسمينة، رصعت بنجومها

والبركة الذهبية الإنشاد

***

ودمشق .. أين تكون؟ قلت : ترينها

في شعرك المنساب نهر سواد

في وجهك العربي، في الثغر الذي

ما زال مختزنا شموس بلادي

في طيب " جنات العريف " ومائها

في الفل ، في الريحان، في الكباد

سارت معي .. والشعر يلهث خلفها

كسنابل تركت بغير حصاد

يتألق القرط الطويل بجيدها

مثل الشموع بليلة الميلاد

ومشيت مثل الطفل خلف دليلتي

ووراثي التاريخ .. كوم رماد

الزخرفات أكاد أسمع نبضها

والزركشات على السقوف تنادي

قالت : هنا الحمراء .. زهو جدودنا

فأقرأ على جدرانها أمجادي

أمجادها!! ومسحت جرحا نازفا

ومسحت جرحا ثانيا بفؤادي

يا ليت وارثتي الجميلة أدركت

أن الذين عنتهم أجدادي

عانقت فيها عندما ودعتها

رجلا يسمى " طارق بن زياد"

وواضح أن الشاعر يستدعي تاريخ العرب في الأندلس وما كان لهم من ملك عريض ، وحضارة ، ومجد تليد ،فهو يتذكر قصر الحمراء ، وممالك العرب التي أقاموها : غرناطة ، وقرطبة ، وطليطلة ، وذلك حين يتحدث عن فتاته ، وقد رأى فيها ملامح أجداده العرب وما فيهم من شموخ وأنفة ، ويأسي لضياع هذا المجد العريق .

والتناص مع التاريخ يكون بأخذ نصوصه بطريقة أو بأخرى : بالإشارة إلى واقعة معينة ، أو باستدعاء موقف من المواقف ، أو تفسير ظاهرة ما ، أو تضمين النص الجديد إشارات تاريخية ذات صلة بموضوع النص .

ويتبادر للذهن سؤال : هل تعد الرواية التاريخية تناصا تاريخيا؟

يقول د / عبد الله حسين البار " وعلى ذلك أراني أميل إلى القول بنفي الصواب عن مصطلح (رواية تاريخية)، و أوثر الاقتصاد على مصطلح (رواية) وكفى، لأنه أعمق وأشمل، فهو يحتوي على

(الحكاية) مثلما يحتوي على (الخطاب) وفيه تقف على مكونات المادة التي جبل منها النص، كما تتعرف على طرائف تشكيله وأساليب أدائه، وهو الأهم في هذا المقام.

وهذا يعني أن الرواية كائنة ما كانت مادتها الحكاية تظل في أول الأمر وآخره رواية ولا غير، والانفعال بها والتفاعل معها ينبعان من كونها رواية وليس من كونها موصوفة بصفة ما مستمدة من طبيعة مادتها الحكائية ولا غير. وهو أمر يدركه من وعوا من أسرار الصنعه الروائية ما وعوا، على أن سواهم تقاصروا عن ذلك فمضوا يستفهمون عن وظيفة (التاريخ) في (الرواية)، وسهل عليهم أن يجمعوا بينهما ليكونا نمطاً روائياً اسمه الرواية التاريخية، وفاتهم أن تقنيات الجمال الأدبي كثيرة، يخلي الأديب عمله منها ما شاء له الإبداع والتفنن ويحلّي الأديب عمله بها ما شاء له الإبداع والتفنن، ومن تلك التقنيات ما يسمى (بالتناص) وصوره شتى، منها ما يكون جزئيا وقد تتنوع مظاهره في العمل الأدبي الواحد. ومنها ما يكون كلياً يشتمل على صورة تتمدد في أجزاء النص وتتنامى في إطار قوانين تشكله وقواعد بنائه وفي هذا تقييد ينفي قدرة النصوص السابقة على إلغاء كيان النص الجديد ونفي هويته الإبداعية، فيظل على سمته النوعية رواية أو قصيدة

أو قصة أو مسرحية أو ما شابه ذلك أو داناه، مهما تنوعت به التقنيات وتعددت وبذلك يغدو التاريخ نصاً تتشكل منه نصوص لها قوانينها التشكيلية وقواعدها البنائية، وليس من أمر يلزم بأن توصف تلك النصوص الجديدة بالتاريخية. أن للشاعر الحق أن يستلهم التاريخ، فهل توصف قصيدته بالتاريخية ؟ وكذلك للروائي الحق في استلهام التاريخ، فلم توصف روايته بالتاريخية؟

إن الخطاب التاريخي من حيث هو نص له هويته وخصائصه النوعية، لا يمنح الخطاب الروائي من حيث هو نص- هوية أو خصائص نوعية، ولكن «الخطاب التاريخي» يتراءى تقنية يشتمل عليها (الخطاب الروائي) وتتحكم فيها آلياتها وهي في مفهوم التناص آليتان، إحداهما هي الاستدعاء وثانيتهما هي (الانزياح) ولقد يتفق الروائيون عند مرحلة الاستدعاء لكنهم يتخالفون عند مرحلة الانزياح فمنهم من يقف عند حدود النص الأول فيكرره على نحو ما دون أن يضيف إليه بعداً جديداً ومنهم من يخرج على حدود النص الأول فيخالفه رؤية ويشكل منه صورة غير ما قد ألفت عنه، ومنهم من يتمايز عن النص الأول بفرادة فيضيف إليه أبعادا ليست له من قبل وفي كل الحالات يمنح جنس العمل الأدبي الخطاب التاريخي سمات لا

يعرفها، وما كان له أن يعرفها لأن لكل خطاب هويته، وقوانين تشكله وقواعد بنائه.

أفيصح لنا من بعد أن نصف (الرواية) بتناص مع التاريخ بأنها رواية تاريخية ؟ أم يحق لنا أن ننظر إليها على أنها رواية وكفى؟ وما استخدام التاريخ فيها إلاَّ تقنية من تقنيات الجمال الأدبي التي يتزين بها النص."

٨ - التناص الوثائقي :

وهذا النوع يأتي بكثرة في النثر كالسرد والسيرة، ومحاكاة النصوص الرسمية التي ترد في الخطابات، والرسائل الشخصية والإخوانية .

ومثال ذلك مانراه في السير الذاتية مثل :

- حياتي لأحمد أمين .
- الأيام لطه حسين .
- أنا لعباس العقاد .

يقول طه حسين في كتاب الأيام :

كان يجلس بين الطاعمين خجلاً وجلاً ، مضطرب النفس مضطرب حركة اليد ، لا يحسن أن يقتطع لقمته ، ولا يحسن أن يغمسها في الطبق ، ولا يحسن أن يبلغ بها فمه ، ويخيل إلى نفسه أن

عيون القوم كلها تلحظه ، وأن عين الشيخ خاصة ترمقه خفية ، فيزيده هذا اضطراباً ، وإذا يده ترتعش ، وإذا بالمرق يتقاطر على ثوبه وهو يعرف ذلك ويألم له ولا يحسن أن يتقيه.

عَرِفَت لنفسه إرادةً قوية ، ومن ذلك الوقت حرم على نفسه ألواناً من الطعام لم تبح له إلا أن جاوز الخامسة والعشرين ، حرم على نفسه الحساء والأرز وكل الألوان التي تؤكل بالملاعق لأنه كان يعرف أنه لا يحسن اصطناع الملعقة ، وكان يكره أن يضحك عليه إخوته ، أو تبكي أمه ، أو يعلمه أبوه في هدوء حزين.

ويقول :

عاد إلى سكونه وجموده في ركنه الذي اضطر إليه ، وقد أخذ النهار ينصرم والشمس تنحدر إلى مغربها وأخذ يتسرب إلى نفسه شعور شاحب هادئ حزين ، ثم يدعو مؤذن المغرب إلى الصلاة فيعرف الصبي أن الليل قد أقبل ، ويقدر في نفسه أن الظلمة قد أخذت تكتنفه ، ويقدر في نفسه أن لو كان معه في الغرفة بعض المبصرين لأضيء المصباح ليطرد هذه الظلمة المتكاثفة ، ولكنه وحيد لا حاجة له إلى المصباح فيما يظن المبصرون ، وإن كان ليراهم مخطئين في هذا الظن ، فقد كان في ذلك الوقت يفرق تفرقة غامضة بين الظلمة والنور.وكان

يجد في المصباح إذا أضيء جليساً له ومؤنساً . وكان يجد في الظلمة وحشة لعلها كانت تأتيه من عقله الناشئ ومن حسه المضطرب .. والغريب أنه كان يجد للظلمة صوتاً يبلغ أذنيه ، صوتاً متصلاً يشبه صوت البعوض لولا أنه غليظ ممتلئ وكان هذا الصوت يبلغ أذنيه فيؤذيهما ، ويبلغ قلبه فيملؤه روعاً ، وإذا هو مضطر إلى أن يغير جلسته فيجلس القرفصاء ويعتمد بمرفقيه على ركبتيه ويخفي رأسه بيديه ويسلم نفسه لهذا الصوت الذي يأخذه من كل مكان.

ويقول :

وسعى إلى مكان الامتحان في زاوية العميان خائفاً أشد الخوف مضطرباً أشد الاضطراب ، ولكنه لم يكد يدنو من المتحنين حتى ذهب عنه الوجل فجأة ، وامتلأ قلبه حسرة وألماً ، وثارت في نفسه خواطر لاذعة لم ينسها قط ، فقط انتظر أن يفرغ المتحنان من الطالب الذي كان أمامهما ، وإذا هو يسمع أحد المتحنين يدعوه بهذه الجملة التي وقعت في أذنه ومن قلبه أسوأ وقع : (أقبل يا أعمى) ولولا أن أخاه أخذ بذراعه في غير رفق وقاده إلى المتحنين في غير كلام لما صدق أن هذه دعوة قد سيقت إليه ، فقد كان تعود من أهله كثيراً من الرفق به

وتجنباً لذكر هذه الآفة بمحضرة ، وكان يقدر ذلك وإن كان لم ينس قط آفته ولم يُشغل قط عن ذكرها " .

ويقول أحمد أمين في سيرته الذاتية(حياتي):

في حجرة في هذا البيت ولدت. وكانت ولادتي في الساعة الخامسة صباحاً من أول أكتوبر سنة 1886، وكأن هذا التأريخ كان إرهاصا باني سأكون مدرساً فأول أكتوبر عادة بدء افتتاح الدراسة. وشاء الله أن أكون كذلك . فكنت مدرساً في مدرسة ابتدائية ، ثم في مدرسة ثانوية ثم في عالية ، وكنت مدرساً لبنين وبنات ، ومشايخ وأفندية ، وكنت رابع ولد وُلد. ولم يكن أبي يحب كثرة الأولاد شعوراً منه بالمسؤولية ، ولما لقي من الحزن العميق في وفاة أختى أبشع وفاة.

فقد كان لي أخت في الثانية عشرة من عمرها شاء أبي إلا تستمر في البيت من غير عمل فأرسلها إلى معلمة تتعلم عندها الخياطة والتفصيل والتطريز. وقامت يوماً بإعداد القهوة لضيوف المعلمة فهبت النار فيها واشتعل شعرها وجسمها وحاولت أن تطفيء نفسها أول الأمر فلم تنجح فصرخت ، ولكن لم يدركوها إلا وهي شعلة نار، ثم فارقت الحياة بعد ساعات. وكان ذلك وأنا حمل في بطن أمي . فتغذيت دماً حزيناً ورضعت بعد ولادتي لبناً حزيناً، واستقبلت عند

ولادتي استقبالاً حزيناً. فهل كان لذلك أثر فيما غلب علي من حزن ، فلا أفرح كما يفرح الناس ، ولا أبتهج بالحياة كما يبتهجون؟ ،علم ذلك عند الله والراسخين في العلم .

وكان من محاسن أسرتنا استقلالنا في المعيشة وفي البيت ، فلا حماة ولا أقارب إلا أن يزوروا لماما ، وكان بيتنا محكوماً بالسلطة الأبوية : فالأب وحده مالك زمام أموره ، لا تخرج الأم إلا بإذنه ، ولا يغيب الأولاد عن البيت بعد الغروب خوفا من ضربه ، ومالية الأسرة كلها في يده يصرف منها كل يوم ما يشاء كما يشاء ، وهو الذي يتحكم حتى فيما نأكل وما لا نأكل ، يشعر شعوراً قوياً بواجبه نحو تعليم أولاده ، فهو يعلمهم بنفسه ويشرف على تعليمهم في مدارسهم ، سواء في ذلك أبناؤه وبناته ، ويتعب في ذلك نفسه تعباً لا حد له ، حتى لقد يكون مريضاً فلا يأبه بمرضه ، ويتكيء على نفسه ليلقي علينا درسه. أما إيناسنا وإدخال السرور والبهجة علينا وحديثه اللطيف معنا فلا يلتفت إليه، ولا يرى أنه واجب عليه ، يرحمنا ولكنه يخفي رحمته ويظهر قسوته ، وتتجلى هذه الرحمة في المرض يصيب أحدنا ، وفي الغيبة إذا عرضت لأحد منا ، يعيش في شبه عزلة في دوره العالي ، يأكل

وحده ويتعبد وحده ، وقلما يلقانا إلا ليقرئنا . أما أحاديثنا وفكاهتنا ولعبنا فمع أمنا .

وقد كان لنا جدة - هي أم أمنا - طيبة القلب شديدة التدين ، يضيء وجهها نوراً ، تزورنا من حين لآخر ، وتبيت عندنا فنفرح بلقائها وحسن حديثها ، وكانت تعرف من القصص الشعبية - الريفية منها والحضرية - الشيء الكثير الذي لا يفرغ ، فنتحلق حولها ونسمع حكاياتها ولا نزال كذلك حتى يغلبنا النوم، وهي قصص مفرحة أحيانا مرعبة أحيانا ، منها ما يدور حول سلطة القدر وغلبة الحظ ، ومنها ما يدور حول مكر النساء ودهائهن ، ومنها حول العفاريت وشيطنتها ، والملوك والعظماء وذلهم أمام القدر "الخ" ، وتتخلل هذه القصص الأمثال الشعبية اللطيفة والجمل التي يتركز عليها مغزى القصة .

ولكن كان بيتنا-على الجملة- جداً لا هزل فيه ، متحفظاً ليس فيه ضحك كثير ولا مرح كثير ، وذلك من جد أبي وعزلته وشدته ".

ويقول العقاد في كتاب (أنا):

" ولدت في أسوان يوم ٢٨ من يونيو ١٩٨٩ م ولي إخوة أشقاء فقد كان والدي متزوجا قبل والدتي ، ثم ماتت زوجته وبعدها تزوج امي.. وكبير أشقائي أحمد، وكان يعمل سكرتيرا لمحكمة أسوان ، وهو

الآن على المعاش ، وعبد اللطيف وهو تاجر ، ولي شقشقة واحدة نحبها جميعا ، وهي متزوجة تعيش في القاهرة إلى جواري ، أما إخوتي غير الأشقاء فهم جميعا أكبر مني سنا ، وبعضهم يعيش في القاهرة ، والبعض الآخر في أسوان .

بدأت حياتي الأدبية وأنا في التاسعة من عمري ، وكانت أول قصيدة نظمتها في حياتي هي قصيدة (مدح العلوم) وقلت فيها :

علم الحساب له مزايا جمة ... وبه يزيد المرء في العرفان

والنحو قنطرة العلوم جميعها ... ومبين غامضها وخير لسان

وكذلك الجغرافيا هادية الفتى ... لمسالك البلدان والوديان

وإذا عرفت لسان قوم يافثى ... نلت الأمان به وأي بيان

وتدرجت في المدارس ، ثم جئت إلى القاهرة للكشف الطبي عندما التحقت بإحدى الوظائف الحكومية عام ١٩٠٤ م وكان عمري إذ ذاك ١٥ سنة ، وكانت وظيفتي في مديرية قنا ، ولم تكن اللوائح تسمح بتثبيتي، لأنني لم أكن قد بلغت سن الرشد ، ثم نقلت إلى الزقازيق ، ثم كنت أول من كتب في الصحف يشكو الظلم الواقع على الموظفين ، ثم سئمت وظائف الحكومة ، وجئت إلى القاهرة وعملت بالصحافة ،

وأخيرا عينت عضوا بمجلس الفنون والآداب .. كما عينت بالمجمع اللغوي .

وفي فصل تال بعنوان (أبي) يقول العقاد :

هل يعرف أحد من أين لي باسم العقاد ؟ ....اما اسم العقاد فأذكر أن جدي لأبي كان من أبناء دمياط ، وكان يشتغل بصناعة الحرير ، ثم اقتضت مطالب العمل أن ينتقل إلى المحلة الكبرى حتى يتخذها مركزا لنشاطه ، ومن هنا أطلق عليه اسم العقاد أي الذي (يعقد) الحرير.. والتصقت بنا وأصبحت علما علينا .

وقد تعجب ان جدنا الأكبر من دمياط ، مع أن الجميع يعرفون أنني من أسوان.

وإني أتمثل أبي الآن في الصورة التي رايتها ألفي مرة بل أكثر من ألفي مرة ، لأنني كنت أراها كل يوم منذ فتحت عيني على الدنيا إلى أن فارقت بلدتي بعد اشتغالي بالوظائف الحكومية .

وتلك هي صورته على مصلاه يؤدي صلاة الصبح ، ويجلس على سجادة الصلاة مع مطلع الفجر إلى ما قبل الإفطار ليتلو سورا خاصة من القرآن الكريم ، ويعقبها بتلاوة الدعوات .

وكـان يـؤدي الصلوات الخمـس في أوقاتهـا ، ولكـن جلسـته في الصـباح البـاكر هـي الـتي انطبعـت في ذاكرتـي إلى هـذه السـاعة ، لأنهـا كانـت أول ما أستقبله من الدنيا كل صباح .

ومن أجل الصلاة حدث بيني وبينـه خلاف يوصف بالعصيان .. فإنه - رحمه الله - كـان يـدين بالجد في الواجب أو الشدة في الجد ن وكـان يـرى للطفـل مـا يـراه الشيخ إذا كـان الأمـر أمـر فريضـة أو عمـل محمود أو عرف مأثور.

من ذلك أنه كـان يراني فيمـا دون الثامنـة من عمـري أجلس في المنزل بين قريباتي وخالاتي وجارات المنزل فيصيح بي مستغضبا :

- عباس ! ماذا تصنع هنا عند النساء ؟ تعال معي فاجلس بين أمثالك .. ومن هم أمثالي؟ .. شيوخ فيما بين الأربعين والسبعين، كـانوا يسمرون معه في(المندرة)ويقضون الوقت في أحاديث الشيوخ عن السياسة تارة وعن قضايا الأسر الكبيرة تارة أخرى، وقلمـا يمزحـون أو يتفكهـون إلا ثـابوا إلى وقـارهم كالمعتـذرين .. وقد أفادتني هذه الجلسات كل فائدة تـأتي من التوقر قبل سن الوقار ، وقلما يخلو من بعض الأضرار."

في هذه المقتطفات من السير الذاتية نلمس التناص في طريقة التناول ماثلة عندهم جميعا، حيث حرص كل كاتب على الحديث عن أسرته وتناول مكوناتها ، ومنزلته ومكانته بين أفرادها ،وما تتحلى به من تقاليد وعادات ، ويعطي طرفا من الحديث عن مسيرته التعليمية ، وما صادفه فيها من صعوبات وعقبات ، وما صادفه فيها من نجاح أو إخفاق .

- فهذا طه حسين يتحدث عن آفة فقد البصر التي مني بها في صغره ، وكيف أنها سببت له كثيرا من الحرج ، والألم النفسي حين كان يتناول الطعام مع إخوته وما كان يلقى من الحرج والعناء ، الأمر الذي دفعه في كبره إلى أن يأكل منفردا بعيدا عن أعين الرقباء ، والأهل والأقرباء ، ثم يحدثنا عن إحساسه بالوحدة والعزلة ، وأن هذه الآفة سببت له كثيرا من الوحدة ، كما يحدثنا عما كان يغمره من مشاعر الخوف والقلق عند دخول لجان الاختبار التي كانت تعقد للطلاب آنذاك ، وكيف أن مناداة الممتحن له:(أقبل يا أعمى) قد سببت له ألما أي ألم !
- وهذا أحمد أمين يحدثنا عن أسرته وما فيها من حياة جادة ، لا هزل فيها ولا ضحك إلا في حدود ضيقة وما تسمح به جدتهم لهم

من خلال حكايات ترويها لهم من القصص الشعبية ، ويحدثنا عن والده الجاد دائما ، والمتحكم في شؤون المنزل وحده ، يصرف اموره المالية والمعيشة ، ولا يسمح بتدخل أحد في مهامه ، ولا يجلس للحديث معهم إلا ليعلمهم فقط ، كما لا ينسى أحمد أمين يحدثنا عن أخته الكبيرة والحادث الذي وقع لها حيث شبت فيها النار عندما كانت تعد القهوة ، فسبب ذلك حزنا شديدا لأمه وأفراد أسرته ، فنشأ في جو حزين لا يعرف الفرح ولا الابتسام .

والعقاد أيضا يحدثنا عن أسرته ، وإخوته الأشقاء ، وكيف توزع أفراد عائلته بين دمياط والمحلة الكبرى وأسوان ، وسبب تسمية أسرته باسم العقاد ، كما يحدثنا عن موهبته الأدبية المبكرة وما نظم من شعر وهو في التاسعة من عمره، ويستفيض في الحديث عن صلاح والده وتقواه ، وحرصه الشديد على أداء الصلوات في أوقاتها، وما كان يتمتع به هذا الأب من جد ووقار، وكيف أن العقاد قد اكتسب منه هذه الصفة في حياته .

وتستطيع أن تتبين التناص بين هؤلاء الكتاب جميعا من خلال طريقة تناول السيرة الذاتية ، حيث سلط كل منهم الضوء على أسرته

وأفرادها ، وعن والديه ويستفيض في إبراز سمات كل منهما ، ولو تتبعنا السيرة كاملة عنده جميعا لوجدنا مزيدا من التناص .

والتناص هنا فيهذين النموذجين نلمسه في اتفاق كلا الكاتبين في طريقة العرض ومن أنواع التناص أيضا:

٩ - تناص التراث الشعبي :

ويقصد به توظيف القص الشعبي، والحكايات القديمة، والموروث الشعبي بمعنى أن يستعين الشاعر بالموروث الشعبي ، وما يضمه من حكايات ، ويضمن فكرتها ، وأجزاءها في ما يكتب من قصائد ، وقد شاع هذا اللون من التناص كثيرا بين الشعراء المعاصرين ولنا أن نتأمل المثال التالي :

يقول توفيق زياد في قصيدة (رمضان كريم) (ص ٣٤٢)

وعلى حدة يجلس بعض السمار

يتمنون ويبنون

قصورا ..في الريح

ويقول فتى

آه .. لو عندي مصباح علاء الدين

لفركته حتى يأتي العملاق

قدامي يرتعش المسكين

طلبي متواضع : ألف جنيه صفراء

مهر لـ (سعاد) ساحرتي السمراء

ويقول خيالي آخر :

" آه لو أملك خاتم شبيك لبيك "

يأتي حين أشاء العفريت

(سعدك يا سيد بين يديك)

لقلبت الدنيا .. أوقدت جحيم

وقذفت إليه بكل لئيم

وجعلت الخبز بدون نقود

ورفعت لكل فقير قصرا

وزرعت الحرية في كل تراب

والورد على كل الأبواب

ففي هذا النموذج يستعين الشاعر بالحكاية الشعبية (مصباح علاء الدين) التي يعرفها الجميع وكيف أن العملاق الذي يخرج من المصباح يحقق للمرء ما يتمنى .

وهناك أيضا :

١٠ - التناص النقدي :

حتى كتب التراث النقدي نفسها لم تسلم من التناص ففي مجلة جذور في عددها رقم ثلاثين تتناول موضوعا تحت مسمى (التناص النقدي) عنون له كاتبه (عبد الحميد الحسامي) عنوانا هو (صدى الموازنة في المثل السائر) ، فتعال معي أيها القارىء المحترم نتجول عبر سطور هذا المقال نستعرض مافيه من تناص نقدي :

يبين كاتب المقال في بدايته أن كتاب المثل السائر يمثل قيمة نقدية كبيرة الوزن بين كتب التراث ، وذلك لما اشتمل عليه من أحكام نقدية ، فهو موسوعة كبرى تشكل نقلة فكرية في بنية التفكير النقدي نال بها صاحبها منزلة مرموقة في عالم الأدب والنقد ، وما يزال .

ويعترف ابن الأثير أنه قرأ كثيرا في كتب الأدب وموسوعاته (فلم يترك في تحصيله سبيلا إلا انتهجه) ثم نراه يقف في إجلال أمام كتابي :" الموازنة " للآمدي ، وكتاب " سر الفصاحة " لابن سنان الخفاجي ، حتى ليقول عنهما " وقد ألف الناس فيه – أي البيان – كتبا وجلبوا ذهبا ، وحطبوا حطبا ، وما من تأليف إلا وقد تصفحت شينه وسينه ، وعلمت غثه وسمينه ، فلم أجد ما ينتفع به في ذلك إلا

كتاب الموازنة للآمدي ، وكتاب سر الفصاحة للخفاجي ، غير أن الموازنة أجمع أصولا ، وأجدى محصولا "

وابن الأثير في هذا القول يعطينا انطباعا عن أثر الكتابين فيه ، وأثرهما في كتاباته وآرائه ، وهذا ما دفع كاتب المقال (عبد الحميد الحسامي) إلى تتبع التناص الكائن بين الموازنة والمثل السائر من خلال ملاحظته الموضوعات التي يشترك فيها الكتابان والتناص في الفكرة أو البناء النصي أو طريقة المعالجة للموضوع .

ويطرح صاحب المقال سؤالا محوريا يبين إجابته فيما بعد ، يتساءل ،

- ما ملامح تناص المثل السائر مع الموازنة ؟ ويضح سؤاله أكثر باستفسارات فرعية ؟
- هل تجسد التناص في المادة العلمية فقط ؟ أو أنها طالت المادة والمنهج ؟وهل اقتصرت على المواضع التي ذكرها ابن الأثير؟ أو انها تسللت إلى بنية الكتاب فبرزت في مواضع عديدة ذكر بعضها وأعرض عن بعض ؟

ويخلص الباحث إلى ،

بيان تناص المثل السائر مع الموازنة في عدد من الموضوعات التي تناولها ابن الأثير ، وأبرزها ،

١- موضوع المعاظلة :

يردد ابن الأثير قول قدامة ابن جعفر عنها أنها " مداخلة الكلام بعضه في بعض وركوب بعضه بعضا " ويقول عن هذا التعريف أنه خطأ، بل حقيقته التراكب من قولهم : تعاظلت الجرادتان إذا ركبت إحداهما الأخرى ، وهذا المثال الذي مثل به قدامة لا تراكب في ألفاظه ولا في معانيه " وابن الأثير لم يأت بجديد ، لأنه يردد ما قاله الآمدي صاحب الموازنة من قبل ، وعجيب الأمر أن ابن الأثير - كما يقول الباحث - يستنكف أن يعترف بالفضل للآمدي في التقدم والسبق في تناول أغلاط قدامة " .

٢- موضوع الجناس :

يقول ابن الأثير : " وقد أكثر أبو تمام من التجنيس في شعره فمنه ما أغرب فيه فأحسن كالذي ذكرته ومنه ما اتى به كريها مستثقلا ، وذكر من جيده قوله :

يوم أرشق والهيجاء قد رشقت من المنية رشقا وابلا قصفا

ويقول ابن الأثير : " وله من الغث البارد المتكلف شيء كثير لا حاجة إلى استقصائه .."وانظر إلى ما قاله الآمدي لتعلم مدى التناص :

يقول الآمدي فيما أتى به أبو تمام من جناس :" فاعتمده (أي الجناس) الطائي (أبو تمام)وجعله غرضه ، وبنى أكثر شعره عليه ، فلو كان قلل منه واقتصر على مثل قوله :

ياربع لو ربعوا على ابن هموم

وأشباه هذا من الألفاظ المتجانسة المستعذبة اللائقة بالمعنى – لكان قد أتى على الغرض وتخلص من الهجنة والعيب .

فأما أن يقول :

قرت بقران عين الدين وانشترت يالأشترين عيون الشرك فاصطلما

فإن انشتار عيون الشرك في غاية الغثاثة والقباحة ، وأيضا فإن انشتار العين ليس بموجب للاصطلام ....فهذا كله تجنيس في غاية البشاعة والركاكة والهجانة "

ثم يحدد الباحث موضع التناص :

فقول ابن الأثير(وله من الغث البارد المتكلف شيء كثير لا حاجة إلى استقصائه) يقابله قول الآمدي (فهذا كله تجنيس في غاية الشناعة والركاكة والهجانة) .

ويذكر الباحث من الأبواب التي تناص فيها ابن الأثير مع الآمدي :

٣- موضوع السرقات :

- يقول ابن الأثير " والصحيح أن باب الابتداع للمعاني مفتوح إلى يوم القيامة ومن الذي يحجر على الخواطر وهي قاذفة بما لا نهاية له .. لأن الخواطر تأتي به من غير حاجة إلى اتباع الآخر الأول ..وإنما يطلق اسم السرقة في معنى الخصوص كقول أبي تمام :

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

فهذا معنى مخصوص ابتدعه أبو تمام وفي الموازنة يقول الآمدي : " إن السرقة إنما هي في البديع المخترع الذي يختص به الشاعر ' لا في المعاني المشتركة بين الناس التي هي جارية على عاداتهم ، ومستعملة في أمثالهم ومحاوراتهم ، مما ترتفع الظنة فيه عن الذي يورده أن يقال : إنه أخذ من غيره "

- ويخلص الباحث إلى التناص بين الشيخين الجليلين قائلا :

" النصان يكادان يتطابقان من حيث النظرة إلى حدود السرقة فهي لدى الآمدي في المعاني المخترعة ، وهي كذلك عند ابن الأثير الذي تميز بتشقيق معاني السرقة ومصطلحاتها ، بل إن ابن الأثير يأخذ نص

الآمدي بحذافيره حين يقول : (إن السرق إنما هو في البديع المخترع الذي يختص به الشاعر لا في المعاني المشتركة بين الناس التي هي جارية على عاداتهم المستعملة في أمثالهم ومحاوراتهم " وهذا النص قد أورده ابن الأثير في " الاستدراك " وليس في المثل السائر .

صدى (الموازنة) واضح في (المثل السائر) وملموس في المعاظلة ، والتجنيس والمطابقة ، والسرقات ، وآلة البيان .

وملموس – أيضا – في طريقة المعالجة وتناول الأمثلة .

خاتمة

وبعد .. فهذا هو التناص - كما بينا - تعريفه ، وأنواعه ، ونماذجه ، وأن أجدادنا العرب وشيوخ النقد القدماء ، قد عالجوا مفهومه وأنواعه تحت مسمى السرقات الأدبية .

ونعود نكرر ما سبق أن ذكرناه في مقدمة الكتاب وبينا فيه فضل العرب وسبقهم في الحديث عن أخذ الشعراء من غيرهم ، وتأثرهم بالنصوص الأخرى ، وفصلوا القول في طرائق الأخذ والتأثر ، وما أطلقوا عليه من ألقاب السلخ والمسخ ، والإغارة ، والغصب ، وما شابه ذلك من مسميات أدرجها المعاصرون تحت مصطلح (التناص) ، وما أكثر ما غيروا في إطار الحداثة والافتتان بالغرب ومسمياته ، ونظرياته ، وفي تراثنا حقيقة كل شيء ، وعند أجدادنا وشيوخنا العرب اليقين ، وفي ثنايا ما أبدعوه أصول لكل ما يهب علينا من رياح الغرب ومصطلحاته ونظرياته ، فهل من عودة إلى كنوز هذا التراث؟ وهل من وقفة تأمل مستوعبة لكل ما تركه أجدادنا الفحول العظماء ؟ أسأل ، وأتمنى ..!